



# نظرية المعرفة

السيد حسن إبراهيميان

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر





مرکز اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

## نظرية المعرفة



حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤسسة

## مُؤَسَّسَةُ أُمِّ الْقُرَى لِلتَّحْقِيقِ وَالنَّشْرِ

اسم الكتاب: نظرية المعرفة

تأليف: السيد حسن إبراهيميان

تعريب: الشيخ فضيل الجزائري

الناشر: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

الطبعة الأولى: ربيع الأول ١٤٢٥هـ. / ٢٠٠٤م

لبنان / بيروت / الغبيري ص - ب ٢٧٨ / ٢٥

[info@Omalqora.com](mailto:info@Omalqora.com)

# نظرية المعرفة

تأليف

السيد حسن إبراهيميان

تعريب

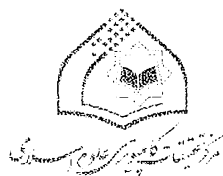
شبكة كتب الشيعة

الشيخ فضيل الجزائري

مَوْسَسَةُ الْقُرَى لِلتَّحْقِيقِ وَالنَّشْرِ

shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net



## المقدمة:

إنَّ الأحداث والتطورات التي تحدث في العالم فرضت نفسها بقوة في الحوزات العلمية، وفرضت عليها مسؤوليات كبيرة، ولم يشهد التاريخ مثيلاً لها، فأقبال طلاب الحقيقة والمعرفة للتعرف على العلوم الإسلامية وقيمها يزيد من مسؤولية علماء الدين في هذا الزمان، لتبيين الموقف العلمي والعملي للإسلام تجاه القضايا المعرفية المطروحة في الوسط الفكري، وخصوصاً تلك المعارف التي ترتبط بالأيدلوجيات والتي تختلف باختلاف الرؤى الكونية للعالم، فعليه لابد من تحديد المنهج المناسب للوصول إلى نظرية متكاملة نتمكن خلالها من التفريق بين المعرفة الصحيحة والمعرفة الباطلة.

وهذا الكتاب (نظرية المعرفة) للسيد حسن إبراهيميان محاولة لتقديم نظرية متكاملة مسئلة من القرآن الكريم، تجيب عن بعض الأسئلة المثارة في عالم المعرفة، لأنَّ النظرية القرآنية



تدعو إلى تقوية البعد العلمي الحقيقي والمعرفي لدى أفراد الإنسانية، لبناء مجتمع متكامل فكرياً وإيصاله للسعادة في الدارين. والمؤسسة إذ تساهم في نشر هذه المعارف الإسلامية إحساساً منها بالمسؤولية تجاه نشر معارف أهل البيت عليهم السلام وإثراء الساحة الفكرية في العالم الإسلامي والعربي.

وفي الختام لا يفوتنا أن نتقدم بالشكر والثناء إلى الأخ الكريم سماحة الشيخ الفاضل فضيل الجزائري لقيامه بتعريب الكتاب بأسلوب علمي ودقيق، ولجهوده في تقديم الآثار العلمية التي تساهم في تحقيق الأهداف السامية.

كذلك نتقدم بالشكر إلى كل الإخوة الذين ساهموا في إخراج الكتاب إلى النور.

نسأل الله تعالى لهم ولنا دوام الموفقية والاستمرار في نشر الإسلام المحمدي الأصيل.

# بحوث تمهيدية



## ١ - ضرورة المعرفة:

يتمثل الفصل الذي يميز الإنسان عن باقي أنواع الحيوان في قوته الفكرية والعقلية، فإنه نوع وجود لا يتحرك نحو أهدافه المتنوعة إلاّ بوعي تام منه، ولا يستخدم إرادته في تحقيق مشاريعه إلاّ في ضوء ما تملّيه عليه عقلانيته، فإذا نزعته منه هذه القوة فلا يبقى فيه إلاّ الحيوانية، وهذه الحقيقة يشير إليها القرآن الكريم ببيان شافٍ في الآية الشريفة: ﴿إِنَّ شَرَّ الثَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١)</sup> وأول مسألة أساسية تواجه الإنسان العاقل هي سرّ الوجود المحيط به الذي يرى نفسه مفردة ضئيلة من مفرداته، الأمر الذي يحفزّه على الغوص في خفاياه ومحاولة معرفة أسرارهِ. وبعبارة أخرى يخامر عقله سؤال أساس هو: هل أن للكون الشاسع الذي يتحرك عليه مبدأً ومعاداً؟ وفيما يتمثل تكليف هذه المفردة الضئيلة من بين تكاليف الموجودات اللامتناهية الأخرى؟ أو أنه لايبالي

---

(١) الأنفال: ٢٢.

بكل هذا معطياً ظهره لهذا السؤال الأساس قائلاً: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّفْنُ﴾<sup>(١)</sup>، مما يدرجه تحت فصيلة: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾<sup>(٢)</sup> و﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

والسؤال: ما هو المنهج الذي يكفل له الإجابة على السؤال الأساس السابق؟ الجواب: إن المناهج المطروحة في العلوم ثلاثة:

أ- منهج العلوم الرياضية وما يندرج تحتها من باقي العلوم.

ب- المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية والتجريبية.

ج - منهج علم الميتافيزيقا.

ومن الواضح أن العلوم الرياضية لا يمكن لها أن تتكفل بالإجابة على تساؤلات أساسية تخص أصل الوجود وغايته؛ إذ غاية ما تتناوله هذه العلوم هي الجمع والطرح والضرب والقسمة

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) محمد: ٢٤.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

وبعبارة ثانية: لا تخرج عن دائرة الكم متصلاً كان أو منفصلاً، فأني هذه العلوم أن تغوص في معارف ليست من طبيعة الكم مطلقاً بل هي من خواص الوجود المطلق. ونفس الشيء بالنسبة إلى العلوم الطبيعية التي تتخذ التجربة كأداة لإثبات مسائلها، فليس لها أن تخوض في أمثال هذه المسائل؛ باعتبار أن موضوعات العلوم الطبيعية لا تخرج - مهما تنوعت وتشعبت - عن المادة وأعراضها، والوجود وأسراره فوق المادة وأعراضها، بل تشكل المادة لبنة ضئيلة جداً من تجليات الوجود المطلق، لا تكاد تذكر بجانب باقي تجليات الوجود العظيمة. فيبقى المنهج العقلي هو الوحيد الكفيل بالإجابة على تلك التساؤلات الحساسة والأساسية.

والسؤال الأساس: هو هل يتمكن العقل البشري بما أوتي من طاقة فكرية إضاءة هذه المسائل؟ فقبل إثبات قيمة المعرفة العقلية وحجيتها في باب المعرفة تبقى هذه الطروحات مجرد دعاوى بدون دليل، وتبقى الأسئلة السابقة عالقة في ذهن الإنسان بدون حل وجواب. ويمثل البحث عن حجية المنهج العقلي - بل عموم المناهج المعرفية - الهم الأساس لعلم المعرفة (نظرية المعرفة)، فنظرية

المعرفة تبحث عن حجية أدوات المعرفة الموصلة إلى الواقعيات الحقيقية، ومن هنا عمد الإنسان إلى دراسة هذه المفاهيم وحجيتها تحت عنوان «مباحث المعرفة» أو «نظرية المعرفة».

وبعبارة أخرى: إذا لم تنقح مسائل المعرفة تنقيحاً جيداً وتبين بياناً شافياً في حقل الدراسات المعرفية، فلا يمكن لنا بيان المسائل الفلسفية والعلمية المختلفة؛ إذ تدّعي المدارس على أشكالها المتنوعة أنها تبحث عن أسرار الوجود كما في فلسفة الوجود (الميتافيزيقا) أو عن أسرار الوجود مقيداً كما في المدارس العلمية الأخرى. ومن الواضح: أن دراسة أسرار الوجود على مستوى الحقل المعرفية المختلفة لا تيسر إلا إذا نقحت سلسلة مسائل أساسية من قبيل: هل ثمة عالم في الخارج وراء الذهن الإنساني؟ أو هل أن دائرة الوجود منحصرة في الذهن والذهنيات فقط؟ وهل يمكن للإنسان - على فرض أن العالم متحقق خارجاً - أن يعلم به أو لا؟ وعلى فرض إمكان العلم به فإلى أي مدى يتيسر له ذلك؟ وهل علمه بالأشياء كما هي عليه في الواقع أو علمه بها مجرد شبح عما هو متحقق في الخارج؟

في الحقيقة: تمثل الإجابة على هذه الأسئلة محاولة كشف  
الذهن لنفسه من خلال كشف آليات التفكير وأساسه، فما لم يعرف  
الذهن القوانين التي يتبعها أثناء غوصه في معرفة أسرار الوجود  
فحتماً يقع في وحل المغالطات والاشتباه، والفن المتكفل بمعرفة  
حجية هذه القوانين هو فن «نظرية المعرفة» أو «علم المعرفة».

وتحضرنا عبارة فاخرة للمحقق الكبير مرتضى المطهري رحمه الله  
يكررها دائماً في محاضراته: «من لا يعرف تشريح الذهن لا يعرف  
الفلسفة» التي تؤثر على أن تحليل الذهن ودراسة آلياته مهمة  
أساسية وحتمية لفهم موضوعات الفلسفة والعلوم. ويقول في أهمية  
وضرورة «نظرية المعرفة» في كتابه «مسألة المعرفة»: «نشاهد  
مدارس متعددة وأيديولوجيات مختلفة في الساحة الاجتماعية، يطرح  
كل منها منهجاً وطريقاً لحل المشاكل العلمية والعملية التي تواجه  
الإنسان. والسؤال المطروح: لماذا هذا الاختلاف الموجود بين هذه  
المدارس؟ الجواب: يرجع السرّ في ذلك إلى الاختلاف في الرؤية  
الكونية؛ على اعتبار أن الأيديولوجيا تتوكل على الرؤية الكونية، بل  
أنها مولود الرؤية الكونية. وتتمثل وظيفة الأيديولوجيا في تبين



مقولات من قبيل «ما يجب» و«ما لا يجب» أي: كيف يجب أن نعيش ونسير في هذه الحياة؟ ومن المشروع لك أن تسأل: ولماذا الأيديولوجيا تأمرنا بهذا؟ نقول في الجواب: لأن الرؤية الكونية تبين لنا ما هي القوانين التي تحكم الجامعة الإنسانية، وما هي الغاية التي تتحرك نحوها.

الحاصل: إن كل ما وصلنا إليه على مستوى الرؤية الكونية ينعكس على الأيديولوجيا، وبتعبير القدماء: الأيديولوجيا هي الحكمة العملية والرؤية الكونية هي الحكمة العلمية، والحكمة العملية متوقفة على الحكمة العلمية. وقد يسأل مجدداً: لماذا نجد الأيديولوجيات مختلفة فيما بينها؟ ولماذا هناك من يفكر تفكيراً مادياً ويوصله إلى نتيجة تناسب تفكيره المادي، وثم من يفكر بطريقة أخرى يصل إلى نتيجة مختلفة؟

الجواب: الأيديولوجيات المختلفة ناتجة عن المعارف المختلفة وذلك أن كل مدرسة نهجت طريقاً في المعرفة يختلف عما انتهجته باقي المدارس، وبالتالي وصلت إلى رؤية كونية تناسب منهجها المعرفي، مما أفضى في النهاية إلى أيديولوجيات متنوعة. وباعتبار أن

واحدة من المعرفتين باطلة حتماً والثانية صحيحة، تتجلى خطورة بحث «معيار المعرفة» وأهميته الفائقة في «نظرية المعرفة»، والذي يتيسر لنا بموجبه تشخيص الصحيح من الخطأ في الحقول المعرفية المختلفة.

ومن هنا يتضح أنه يجب علينا بدأً وقبل الولوج في البحث عن صحة ما يطرح في المدارس المتنوعة ومثانة الرؤى الكونية المختلفة، الغوص في مسائل «نظرية المعرفة» كي نتمكن من تميز المعرفة الصحيحة عن المعرفة الباطلة، وبالتالي: يتيسر لنا انتخاب المدرسة الصحيحة من غيرها<sup>(١)</sup>.

## ٢ - المعرفة وضرورتها في الرؤية القرآنية:

لا يجد المتأمل في تعاليم الإسلام كتاباً حثّ على المعرفة كما حثّ عليها القرآن الكريم، ولا ديناً شجع أتباعه على المعرفة والتعلّم كما شجع الإسلام أتباعه على ذلك، ولا يجد مدرسة حددت وبينت موانع المعرفة وشرائطها كما حددها وبينها الإسلام.

(١) بتلخيص وتصرف منا.

فإننا نجد مادة «علم» قد ذكرت في القرآن ما يربو على (١٠٥) مرة وما يشتق منها (٧٧) مرة، ومادة «عقل» ما يربو على (٩) مرات ومادة «فقه» ما يربو على (٢٠) مرة، ومادة «فكر» ما يربو على (١٨) مرة.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى تشجيع هذا الدين العظيم على التعليم والتعلم والتفكير والتفكير. والعجيب أن إصرار القرآن الكريم على التفكير والتأمل في الوجود وأسراره قد تمّ في بيئة غلب عليها الجهل والتخلف بكل أشكاله، بل كان المخاطبون أمة أمية لا تعرف الكتابة ولا القراءة ولا تملك شيئاً من مقومات الحضارة والمدنية، مما يدل على أن القرآن الكريم لا يرى إمكان المعرفة فحسب بل يراها أهم واجب يمارسه إنسان يريد أن يعيش جوهر حقيقته.

ونشير فيما يلي إلى بعض الآيات تحت على المعرفة والتعلم:

- ١- ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.
- ٢- ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) البقرة: ٢٠٩.

(٢) البقرة: ٣٣.

٣- ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

٤- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ...﴾<sup>(٢)</sup>.

٥- ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

٦- ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

٧- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾<sup>(٥)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي

الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾<sup>(٦)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿... اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ

مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا...﴾<sup>(٧)</sup>.

(١) البقرة: ٢٠٣.

(٢) الحديد: ٢٠.

(٣) الأنعام: ٥٠.

(٤) الأعراف: ١٧٦.

(٥) الروم: ٨.

(٦) التوبة: ١٢٢.

(٧) الطلاق: ١٢.

وقوله تعالى: ﴿كَتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿... لثَرِيهٌ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾<sup>(٤)</sup>.

عصارة ما جاء في الآيات السابقة: يظهر من التأمل والتدبر

فيها الحقائق التالية:

١ - ترى النظرية القرآنية أنَّ المعرفة ممكنة وبإمكان الإنسان أن يصل إلى الواقع كما هو في نفسه، بخلاف ما تبنته بعض المدارس من استحالة المعرفة، ونكتشف هذه المسألة من دعوة القرآن الإنسان إلى التفكير والتأمل وحته الشديد على طلب العلم؛ فإن لم تكن المعرفة ممكنة فلا بحث عليها القرآن باعتباره لا يأمر الإنسان بما هو غير مقدور في ذاته.

(١) ص: ٢٩.

(٢) محمد: ٢٤.

(٣) الإسراء: ١.

(٤) النجم: ١٨.

٢ - تتمثل النظرية القرآنية في أن قيمة الإنسان في العلم والمعرفة، فكل من يتحلى بالمعرفة أكثر يتحلى بالقيمة الإنسانية أكثر وأشد، وتعد أدوات المعرفة التي ينطوي عليها الإنسان من أعظم النعم الإلهية في النظرية القرآنية، فكلما استخدمها ووظفها في ترقية وعيه ومقامه ازدادت قيمته الإنسانية.

٣ - الطريقة التي تقترحها النظرية القرآنية في دفع ورفع الآفات الاجتماعية والفسانية هي تقوية البعد العلمي الحقيقي والمعرفي لدى أفراد الإنسانية ومحاربة كل أنواع الجهل وكل ما يعرقل رشد الإنسان.

٤ - المعرفة الظنية ليس لها اعتبار في النظرية القرآنية: ﴿وَلَا تُقَفُّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾<sup>(١)</sup> و﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾<sup>(٢)</sup>، والمعرفة الحسية معرفة سطحية وظاهرية، بل المعرفة الحقيقية هي التي تقوم على أساس التعقل والتدبر والتعاطي مع المعارف تعاطياً يقينياً، ولا تقبل نظرية من النظريات إلا إذا كانت

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) يونس: ٣٦.

قائمة على أساس البرهان والحجة اليقينية: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»<sup>(١)</sup>.

### ٣ - تاريخ نظرية المعرفة:

لم تكن مسائل «نظرية المعرفة» مطروحة ومتناولة بشكل مستقل قبل القرون الثلاثة السابقة على زماننا، ثم بدأت تنفصل قليلاً قليلاً عن مسائل «الفلسفة العامة» إلى أن تشكل علم جديد تحت عنوان الدراسات الإبيستمولوجيا (Epistemology). ويعد المفكر البريطاني جان لوك أول فيلسوف تناول مسائل هذا العلم في كتابه «تحقيق في فهم الإنسان وعقله»، ثم تعمقت البحوث والتحقيقات في هذا الحقل المعرفي في الوسط الثقافي الغربي بخاصة في القرن الماضي (٢٠م) إلى درجة أنها احتلت مكانة «الفلسفة العامة» وطرحت مسائل ظريفة ودقيقة غيرت ماهية هذا العلم كلية. وأهم مسألة تتناول في هذا العلم «قيمة المعرفة»، والسبب الذي أدى إلى طرحها هو أن القدماء رأوا أن الحواس الخمس التي تشكل القناة

(١) البقرة: ١١١.

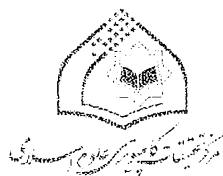
التي تربط الإنسان بالعالم الخارجي ترتكب أخطاءً كثيرة، مما ترك بعضهم ينفذ يده عنها ويركن إلى العقل الخالص في نيل المعرفة. ومن جهة أخرى أدت الاختلافات الكثيرة بين العلماء في المسائل العقلية والاستدلالات المتناقضة في النظريات المختلفة، إلى ظهور السفسطائيين النافين لأصل الواقعية، الأمر الذي دفع العلماء إلى إثارة مسألة «قيمة المعرفة»، وكان أرسطو أول من نظم قوانين المنطق بصفتها آلة تعصم الذهن عن الخطأ في الفكر، ثم توالى البحوث والتحقيقات في هذا المجال بصفة مبعثرة حتى جاء ديكارت الذي أثار نظريته في الشك المعرفي المشهورة «أنا أشك فأنا موجود» حيث طرح نظريات معرفية ظريفة، وسار على نفس النهج الفيلسوف الكبير ليبني بمخاصة في نقاشه لأطروحة جان لاك، مما أثري البحوث المعرفية وزادها عمقاً.

وأما في الفلسفة الإسلامية فلم تطرح مسائل المعرفة تحت عنوان مستقل، بل طرحت في خضم المباحث الأخرى من قبيل: بحوث النفس (النفس، معرفة النفس، وتجرد النفس)، والإدراك الذي يمثل مرتبة من مراتب النفس، وفي بحث المقولات حيث يتناول



العلم تحت «الكيف النفساني»، وفي بحث الكلبي والجزئي إذ تشكل الكلية حقيقة ذهنية (معرفية)، وفي مباحث «اتحاد العاقل والمعقول» و«العقل النظري والعملي»، وفي باب «اعتبارات الماهية»، وبخاصة في بحث «الوجود الذهني» و«ملاك صدق وكذب القضايا». وقد حان الوقت لفرزها ودراستها دراسة مستقلة مع مقارنتها بالبحوث الجديدة كما تطرحها المدارس الغربية، حتى يعم نفعها وبركتها الحقول المعرفية الأخرى.

## تعريف المعرفة



تعريف الشي توضيحه ورفع الإبهام عنه؛ بمعنى: تجزئته إلى أجزائه المتركب منها كما تجزأ الأشياء الخارجية لمعرفة مكوناتها الداخلية من قبيل: تجزئة الماء إلى عنصري الهيدروجين والأكسجين أو الإتيان بمفهوم واضح مكان مفهوم غير واضح، أو بيان آثار الشيء وخصائصه، أو تحليل ماهية الشيء نظير تحليل ماهية الإنسان إلى حيوان ناطق.

والخلاصة: إن الغاية من التعريف في كل هذه الموارد هو رفع الإبهام عن مفهوم الشيء وماهيته. فالأشياء التي لا إبهام ولا غموض في مفاهيمها لا تحتاج إلى تعريف نظير المعرفة والعلم فإنهما من المفاهيم الواضحة بذاتها ولا يوجد أوضح منهما يعرفهما<sup>(١)</sup>. فبناءً على هذا: إن كل تعريف أثير لتوضيح المعرفة عرفها بما هو أخفى وأغمض منها؛ لأنه لا يوجد أوضح من المعرفة فتعريفها في الواقع تحصيل للحاصل.

---

(١) الأسفار: ٣، كشف المراد، المسألة الثانية في بحث العلم: ١٧٢.

وفيا يلي بعض المحاولات لتعريف المعرفة:

### ١- المعرفة: هي انعكاس الخارج في الذهن:

عرّف صاحب كتاب «المعرفة والمقولات الفلسفية» المعرفة بـ «انعكاس الأشياء والظواهر المادية وخصوصياتها في الذهن» وعرّفها صاحب «التفسير الموضوعي لبيان القرآن» بـ «المعرفة عبارة عن تبديل الواقعيات الخارجية إلى حقائق ذهنية وانعكاسها كما هي في مرآة الفكر»<sup>(١)</sup>.

### ٢- نقد ونقض:

١-٢: العلم الحضورى: النقد الأول الذي يرد على التعريف السابق بصورتيه أنه لا يشتمل على العلم الحضورى؛ لأنه لا توجد فيه واسطة ذهنية ولا خارج ينعكس في الذهن. وبيان ذلك نقول: يقسم العلم إلى حضوري وحصولي، والحصولي هو العلم بواسطة أي أنّ الواقعية غير حاضرة لدى العالم بل الحاضر هو مفهوم الشيء أو ماهيته، من قبيل: علم النفس بالحقائق الخارجية، وبالتالي: لدينا

(١) التفسير الموضوعي لبيان القرآن ١: ١٠١.

ثلاثة أمور في العلم الحسولي: أ- المدرك وهو الإنسان ب- الشيء الخارجي المصطلح عليه في الفلسفة بالمعلوم بالعرض<sup>(١)</sup> ج- الصورة الذهنية المصطلح عليه في الفلسفة بالمعلوم بالذات.

والحسوري هو العلم بدون واسطة؛ أي المعلوم الخارجي حاضر بوجوده لدى العالم، فالعالم يحيط بالواقعية مباشرة، فقد يكون عندنا في العلم الحسوري أمران وقد يكون أكثر من أمرين، فالحالة الأولى مثل: علمنا بنفس الصورة العلمية، فثمة: ١- العالم: هو الإنسان، ٢- الصورة الذهنية، فإن نعلم الواقع الخارجي بواسطة الصورة الذهنية وعلمنا بنفس الصورة العلمية لا يكون بصورة أخرى وإلا تسلسل الأمر لا إلى نهاية. و الحالة الثانية عبارة عن ثلاثة أمور تشكل شيئاً واحداً (العالم والمعلوم والعلم) من قبيل: علم الإنسان بذاته<sup>(٢)</sup>، فالإنسان هو العالم والمعلوم والعلم.

---

(١) السر في تسمية الشيء الخارجي ((معلوم بالعرض))، والصورة الذهنية ((معلوم بالذات))، هو أن الإنسان يتعاطى مع صورته الذهنية كاشفاً بها الواقع الخارجي، ومن هنا فالمعلوم الحقيقي (بالذات) عندنا هو الصور الذهنية وثانياً الواقع الخارجي (بالعرض).

(٢) نهاية الحكمة: ٣٣٦ - ٣٣٧، أصول الفلسفة المنهج الواقعي ٢: ٣٢.

وبالتالي: تشمل التعاريف السابقة قسماً واحداً فقط هو العلم  
الحصولي ولا تشمل العلم الحضورى.

٢-٢: المعقولات الثانية المنطقية: ينتقد التعريف السابق  
بالمعقولات الثانوية المنطقية؛ فإن الفلسفة الإسلامية تقسم  
المعقولات إلى قسمين: أ- المعقولات الأولية، ب- المعقولات  
الثانوية، حيث تتمثل المعقولات الأولية في إدراكات حاصلة من  
ارتباط ساذج للذهن مع الواقع الخارجى مثل إدراك الأجسام  
والألوان والأشكال وما شابه ذلك، وهي أول ما يدركه الإنسان  
وتمثل المصداق الواضح لانعكاس الخارج في الذهن. وتتمثل  
المعقولات الثانوية في إدراكات حاصلة بفعالية ذهنية خالصة  
بمعنى: أن الذهن بنشاط وفعالية خاصة يحصل على هذا النوع من  
المفاهيم، من ذلك على سبيل المثال: الكلبي، النوع، الجنس  
المعرف، الحجة<sup>(١)</sup>... وهي موضوعات يتناولها علم المنطق بالدراسة  
والتحليل. وهي في حقيقتها مفاهيم ذهنية محضة لا يمكن أن تتواجد  
في الخارج، فلا معنى لتواجد الكلية في الخارج الذي يشكل ظرفاً  
للجزئيات والمشتقات.

---

(١) راجع كتب المنطق.

نعم: إنَّ الذهن كواقعية من الواقعيات وكمفردة من مفردات الوجود غير منعزل عن العالم الخارجي وإلاً لا يتأتى له أن يدرك حتى هذه المفاهيم، لكن لا يعني أنَّ هذه المفاهيم تأتي من الخارج بل هذه مسألة أخرى غير ما نحن في صدد بيانه ومعالجته<sup>(١)</sup>.

٣-٢: المعقولات الثانية الفلسفية: ومن المفاهيم التي ليس لها ما بجذاء في الخارج المعقولات الثانية الفلسفية، وهي عبارة عن مفاهيم تعكس خصوصيات وشؤون الواقعيات الخارجية، وهذه الشؤون والخصوصيات ليست موجودة على شكل ذوات بل على شكل أوصاف لا تنال بالخاصة. من ذلك على سبيل المثال: مفهوم الإمكان، مفهوم الشيئية المتصف بهما الإنسان والحجر في الخارج حيث يمكننا القول: «الإنسان ممكن» و«الحجر شيء»، فإنَّ الإنسان والحجر يمثلان واقعيتين خارجيتين، أمَّا الإمكان والشيئية فليس لهما وجود خارج الذهن، وإن كان توصيف الإنسان بالإمكان والحجر

---

(١) بيان ذلك أنَّ البحث عن الجهاز الإدراكي بما هو حقيقة أنطولوجية غير البحث عنه بما هو حاكمي وكاشف عن الواقع؛ فإنَّه من هذه الحيثية يقدر أن يصنع جملة من المفاهيم تحكي حتى مفاهيمه الخاصة به.



بالشيئية توصيفاً صحيحاً. وبالتالي: لا يمكن لنا الإدعاء أن معرفتنا بأن «الإنسان ممكن» أو «الحجر شيء» عبارة عن انعكاس مباشر من الخارج، بل الذهن بفعاليات فكرية يقسم الأشياء الخارجية إلى واجب وممكن وممتنع ثم يصفها بهذه الأوصاف، وبعبارة فنية: إن عروض الإمكان على الإنسان في الذهن واتصافه به في الخارج<sup>(١)</sup>. ومن هنا يتبين ضعف التعريف المطروح فوق، فإن للذهن نشاطاً خاصاً في كشف مفاهيم ليست حسية من قبيل ما علمت، وإن كان لا يتأتى له ذلك بدون ارتباطه بالخارج، وهذه مسألة أخرى غير المسألة التي نحن بصدد حلها.

٢-٤: المحالات الذاتية والمعدومات: ليس ثمة من شك في علمنا بأمور معدومة من قبيل: «الدور» و«التسلسل»<sup>(٢)</sup> الواضحة استحالتهما بتصور بسيط، فهل علمنا باستحالة الدور والتسلسل انعكاس الخارج في الذهن؟ فإن البطلان لا وجود له في الخارج بتاتاً حتى يحل وينعكس في الذهن.

(١) شرح المنظومة، تعريف المقولات: ٣٩، قسم الفلسفة.

(٢) الدور هو توقف شيء على ما يتوقف عليه، والمأل إلى توقف الشيء على نفسه، والتسلسل هو توقف الشيء على أمور لا نهاية لها.

٢-٥: الأرقام الرياضية: ومن المعلومات التي لا تنعكس من الخارج الأرقام الرياضية، فإن الشيء الموجود في الخارج هو الأحاد والمفردات، نعم هذه الفعالية الذهنية لا تتم إلا إذا ارتبط الذهن بالخارج، بحيث تعده المعطيات الحسية للقيام بفعالية خاصة يكشف من خلالها سنخ مفاهيم غير حسية.<sup>(١)</sup>

وببيان آخر: يجب التفكيك بين مطلبين: ألف: إن الصور الذهنية نتاج لارتباط الذهن مباشرة مع الخارج، مثل: تصوره للشجر والقلم. ب: إن ارتباط الذهن بالخارج يشكل أرضية وجهة إعدادية لوعيه وإدراكه لمفاهيم وتصورات ليست لها مصاديق في الخارج، ولتصديقه بأحكام وتصديقات غير متحققة في الخارج.<sup>(٢)</sup> فلا مانع من وجود مفاهيم ذهنية ليست لها مصاديق خارجية، وإن كان صنعها من طرف الذهن نتيجة ارتباطه بالخارج.<sup>(٣)</sup>

(١) الإشارات النمط الثالث: ٧، والنمط الرابع: ٧٧.

(٢) الأسفار ٤ الفصل ١٧: ٣٥١ - ٣٨١.

(٣) الأسفار ١: ٣٦٩، التعليقة على الشفاء: ١٢٩.

### ٣ - تنبيه: المعرفة فرع الوحدة بين العاقل والمعقول:

ما نودُّ أن ننبه عليه هو أنَّ المعرفة لا تحصل بمجرد انعكاس الأشياء في الذهن - سواء أكان التصور مادياً كما يدعي ذلك الماديون أم مجرداً كما يدعي ذلك أتباع الميتافيزيقا - فإنَّ انعكاس صور الأشياء في المرآة لا يجعل المرآة عالمة بها؛ على اعتبار أنَّ المعرفة تتحقق في حالة وجود وحدة بين المتصور (العالم) والصور المنعكسة وباصطلاح فلسفي يجب أن تتحقق وحدة بين العالم والمعلوم بالذات (الصورة الذهنية)<sup>(١)</sup>، وبغير هذا لا يفرق انعكاس الصور في الماء أو المرآة عن انعكاسها في المخ الإنساني. وتشبيه انعكاس الصور العلمية في الذهن بانعكاس صور الأشياء في المرآة، تشبيه قديم كما نجد ذلك في «الكبرى» رسالة في المنطق للسيد الشريف الجرجاني رحمه الله: (اعلم: أنَّ الإنسان قوة درّاسة تنتقش فيها صور الأشياء كالمرآة)<sup>(٢)</sup>. وهذا عبارة عن تشبيه محض بين المرآة والذهن للتشابه الموجود بينهما، من ذلك: كل لون متحقق في المرآة ينعكس

(١) النمط السابع من الإشارات، الاسفار ٣: ٣٢ - ٣٩، نهاية الحكمة: ٢١٤.

(٢) منطق الكبرى.

على الصورة، وكلما كانت المرأة مصقولة صافية تكون الصورة المنعكسة فيها صافية، فكذلك الذهن الإنساني كلما كان خالياً من كل لون من ألوان المفاهيم كانت الصورة كذلك كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من عَشَقَ شَيْئاً أَغْشَى بَصَرَهُ وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ»<sup>(١)</sup>، وقال القرآن: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾<sup>(٢)</sup>، ويقول في آية أخرى: ﴿يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾<sup>(٣)</sup>. وأما جهة الاختلاف بينهما: أ- لا يمكن للمرأة بيان الباطن والمعنى، بل تبيّن فقط ظاهر الشيء، نظير: شكل الإنسان أو لونه وحجمه، ولا يمكن لها بيان علمه ومحبه واحساساته، في حين أن الذهن يدرك أمثال هذه الأمور.

ب - المرأة قد تخطأ ولا تدرك خطأها، فإنها قد تعكس الصغير كبيراً أو العكس (بخاصة إذا كانت محدبة أو مقعرة)، لكن الذهن الإنساني لا يكشف خطأه فحسب بل بإمكانه تصحيحه أيضاً، أي: أنه يكتشف خطأه ويعرف كيف يصلحه. ج - المرأة تعكس فقط

(١) نهج البلاغة الخطبة: ١٠٧.

(٢) فاطر: ٨.

(٣) الكهف: ١٠٤.

الأشياء المنطبعة فيها، لكن الذهن الإنساني كما يعكس الأشياء الخارجية يعكس نفسه كذلك، فهو يعي العالم الخارجي ويعي عالمه الخاص به. - المرأة تعكس فقط ما يقع مقابلها ولا تتجاوز ذلك أبداً، في حين أن الذهن بوصفه يمتلك قوة التعميم يعمم ما يقع مقابله إلى ما لا نهاية له، وليس له قوة التعميم أفقياً فحسب بل له أن يعمم عمودياً أيضاً<sup>(١)</sup>. ه - الأمور التي تنعكس في المرأة تتمثل في المبصرات فقط أما باقي الأشياء فتدرك وباقي الحواس من قبيل: المسموعات والمذوقات وما شابه ذلك. و - المرأة أمر مادي وجسماني، في حين أن الذهن والصور العلمية أمور مجردة غير مادية.

#### ٤ - تعريف صدر المتألهين والعلامة الطباطبائي قدس سرهما:

يتمثل التعريف الذي طرحه هذان العلمان في أن: «العلم: هو حضور مجرد عند مجرد»، يقول العلامة الطباطبائي رحمته في كتابه الشريف «نهاية الحكمة»: «المعلوم عند العلم الحصولي بأمر [شجرة] له نوع تعلق بالمادة هو موجود مجرد هو مبدأ فاعلي لذلك

(١) مسألة المعرفة، الشيخ الطهري.

الأمر واجد لما هو كماله يحضر بوجودها الخارجي للمدرك، وهو علم حضوري ويتعقبه انتقال المدرك إلى ما لذلك الأمر من الماهية والآثار المترتبة عليه في الخارج. وبتعبير آخر: العلم الحسولي اعتبار عقلي يضطر إليه العقل مأخوذ من معلوم حضوري للمدرك وإن كان مدركاً من بعيد... فحضور شيءٍ لشيءٍ حصوله له بحيث يكون تاماً الفعلية غير متعلق بالمادة بحيث يكون ناقصاً من جهة بعض كمالاته التي في القوة. ومقتضى حضور العلم للعالم أن يكون العالم أيضاً تاماً ذا فعلية في نفسه غير ناقص من حيث بعض كمالاته الممكنة له، وهو كونه مجرداً من المادة خالياً عن القوة. فالعلم: حصول أمر مجرد من المادة لأمر مجرد، وإن شئت قلت: حضور شيءٍ لشيءٍ»<sup>(١)</sup>.

## ٥ - نقد وتحقيق:

٥ -١: يرد على هذا التعريف أنه لا يشمل العلم بالماديات بما هي ماديات، فإنها بما هي ماديات خارجة وفقاً لهذا التعريف عن العلم والإدراك، ولازمه كون الله تعالى لا يعلم بالماديات بما هي

(١) نهاية الحكمة: ٣٣٩ - ٣٤٠.

ماديات. وهذا مطلب عجيب؛ على اعتبار أن ما نريده من العلم هو إحاطة العالم بوجود المعلوم في أية مرتبة وجد فيها حتى تتحقق الكاشفية التامة. والموجود المادي بوصفه مفاضاً عن علته الفاعلة حاضر عندها ضرورة، فكيف لا تعلم ولا تحيط به وقد تحقق بإشرافها؟ فالأفضل تغيير التعريف كالتالي: «العلم: هو حضور شيء عند فاعل مجرد».

٥ - ٢: يشم من هذا التعريف رائحة المثالية؛ على اعتبار أن الإحاطة بالموجود المادي تتم من خلال الإحاطة بصورته المجردة عن المادة، الأمر الذي يجعلنا بمعزل تام عن العالم المادي، أي لا ندري هل تطابق هذه الصور المجردة الواقع المادي أو لا؟ وكيف نعبر خلال هذه الصور إلى عالم المادة؟ وما هي خصوصيات ومواصفات هذا العالم؟ أسئلة تبقى في ضوء هذه النظرية معلقة وبدون جواب<sup>(١)</sup>.

## ٦ - تعريف العلم عند المشهور:

طرح المشهور تعريفاً للعلم يتمثل في: «العلم هو حضور المعلوم عند العالم»، والحضور واضح على مستوى العلم الحسولي

(١) تعليقة على نهاية الحكمة: ٣٥٢.

باعتبار أن الخارج موجود بصورته لدى العالم (حضور بواسطة) وأما على مستوى العلم الحضورى الذي له أقسام متنوعة منها:

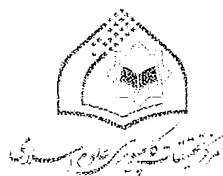
١- الصورة الذهنية: فإنها حاضرة لدى النفس الموجدة لها المحيطة بها إحاطة قىومية، ٢- علم الذات بذاتها: فإنها حاضرة لدى ذاتها فالنفس ذاتها علم والعلم ذاته نفس، فثمة وحدة تمثل المصداق الأكمل للحضور.

#### ٧- تعريف الشيخ مصباح (حفظه الله تعالى):

ذكر الشيخ مصباح اليزدي (دام ظله) في كتابه «تعليم الفلسفة» تعريفاً للعلم يعدّ من أدق التعاريف يتمثل في: «العلم: هو حضور ذات الشيء أو صورته الجزئية أو مفهومه الكلى لدى موجودٍ مجرد»<sup>(١)</sup>، وهو تعريف شامل للعلمين (الخصولى والحضورى) وشامل أيضاً لأقسام العقولات والمفاهيم.

(١) تعليم الفلسفة ١: ١٣٧.





# إمكان المعرفة



من المباحث التي طرحت من قديم الزمان ولا زالت تطرح بقوة في الأوساط العلمية «إمكان المعرفة»، أي: هل يمكن معرفة الإنسان والعالم الذي يحيط به؟ وليس ثمة من شك في إمكان المعرفة بل في وقوعها؛ فإنَّ الإنسان في كل يوم يحاول معرفة الأمور التي تحيط به وتؤثر فيه، وأحسن تجلّي لذلك سعى الفلاسفة والعلماء طول التاريخ في بيان خفايا الكون وأسراره، وإنَّ الإنسان يحمل في ذهنه العديد من المفاهيم ويدّعي بأنّها لها مطابق في الخارج مستقل عن ذهنه تحكيه تلك المفاهيم، وبالتالي: لا يمكن لإنسانٍ عاقلٍ أن يشك في وجود العالم الخارجي وفي إمكان معرفة مكوناته. ومع هذا ظهر في تاريخ الإنسانية من يشكّ في ذلك ويرفض كل معرفة بالعالم الخارجي، وقد تقسم هذه الطائفة إلى فرقتين: الأولى (السفسطائية): تنكر أصل العالم الخارجي مطلقاً الملازم لنفي العلم من باب السالبة بانتفاء الموضوع؛ أي: أنَّ العالم الخارجي الذي يشكل موضوعاً للمعرفة غير موجود حتى تصل النوبة إلى إمكان معرفته.

الثانية (الشكاك): هذه الفرقة لا تنكر وجود العالم الخارجي لكنها تنكر أصل الإحاطة المعرفية به.

ومن الواضح: أنه من البعيد جداً أن يوجد في العالم من ينكر أصل وجود العالم، بل يمكن أن ينكر العلم الصحيح به كما سوف يجيء بيانه في البحوث القادمة، وإذا راجعنا كتب تاريخ الفلسفة نجد أن المؤرخين للفكر يذكرون فرقة تنكر العلم بالعالم الخارجي موسومة بالسفسطائية كانت موجودة في القرن الخامس قبل الميلاد، وبرزت في عصر كانت الفلسفة اليونانية لازالت ضعيفة ساذجة تحتضن أفكاراً وعقائد متناقضة متضادة تتعلق بالعالم والوجود.

### ١ - نشأة السفسطائية:

نشأت هذه الفرقة في خضم الأفكار والمعتقدات المتضادة المتضاربة، ولعجزها عن حل هذه الاختلافات والفصل بينها عمدت إلى مسلك الشك والرفض إلى أن وصل بها الحد إلى نفي المحسوسات والبديهيات، ومن زعماء هذه الفرقة «كوركياس» الذي

يقول: «من المحال أن يكون هناك شيء ما، ولو فرضنا تحققه لا يمكن معرفته، ولو أمكن فرضاً معرفته لا يمكن توصيفه»<sup>(١)</sup>.

وجاء في تاريخ الفلسفة: «ظهرت السفسطائية بين فرقة كانت تتعاطى المحاماة والدفاع عن المتهمين في المحاكم القضائية وكانوا يقبلون الدفاع عن المتهم سواء أكان على حق أم على غير حق، ولم يكن يهمها الحق والدفاع عنه، ومن هنا ساورهم الشك في أصل وجود الحق أو الباطل، وأنَّ العالم الخارجي محض أكذوبة لا أكثر ولا أقل. وآية ذلك أنهم رأوا أنه بإمكانهم بفضل فن الخطابة إظهار الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، وبإمكانهم محاكمة البديهيّات والضروريّات. وكان هذا الرشد الفكري للسفسطائيين يمثل ضربة قاسية بالنسبة إلى الفكر اليوناني، ولولا وقوف الحكماء والعلماء الكبار من أمثال: سقراط، أفلاطون وأرسطو في وجههم وتفنيد مغالطاتهم لعمّ مرض السفسطة آنذاك جميع أطراف العالم<sup>(٢)</sup>. وقد أثبت أرسطو بتدوينه للمنطق وبأدلة بيّنة أنَّ للمحسوسات وبعض المعقولات قيمة معرفية قطعية، وأنه يمكن

(١) تاريخ الفلسفة كابليستون ١، نهاية الحكمة: ٢٥٣.

(٢) أصول الفلسفة ١: ١١٥.

للإنسان إذا راعى أصول المنطق أن يجلي كثير من المبهمات بفضل هذه المحسوسات والمعقولات الأولية. ومع كل هذه الخدمات الجليلة التي قدمها أساطين الفكر اليوناني في محاربتهم السفسة، والتي قد استطاعت إلى حدٍ ما قلع جذور السفسة والفكر المثالي، فقد ظهر مفكر باسم «بيرهون» (٣٦٥-٢٧٥م) أسس بطرحه لأدلته العشرة مذهباً جديداً باسم «لا أدري»<sup>(١)</sup>، تتمثل تلك المبادئ في أنه لا يمكن الإذعان والاعتقاد بأي شيء، ولا يمكن التسليم بأي تصديق أو تكذيب فيما يتصل بثبوت الحقائق الخارجية. ومع ظهور الدين المبين (الإسلام) وأقول الحضارة اليونانية، أفل نجم السفسة إلى غير رجعة، ومن الأدلة الطريفة ما ذكره الشيخ الرئيس في كتابه النفيس: «إلهيات الشفاء»: «وأما المتعنت فينبغي أن يكلف شروع النار إذ النار واللائار واحد؛ وأن يؤلم ضرباً إذ الوجع واللاوجع واحد؛ وأن يمنع الطعام والشراب إذ الأكل والشرب وتركهما واحد»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) إلهيات الشفاء، المقالة الأولى، الفصل السابع، الأسفار ١: ٩٠، ٣: ٤٤٥.

(٢) الأسفار ١: ٩٠، إلهيات الشفاء، الفصل السابع، المقالة الأولى: ٣٦.

## ٢ - إنكار إمكان المعرفة:

نقتصر هنا على بعض ما جاء في الكتب التي تؤرخ للسفسطائية حتى تكون لدينا فكرة إجمالية عن هذه الفرقة:

١-٢: جاء في كتاب «الفصل» لأبن حزم الأندلسي: «السفسطائية - وهم مبطلو الحقائق - إنهم ثلاثة أصناف: فصنف منهم ألقى الحقائق، وصنف منهم شك فيها، وصنف منهم قال: هي حق عند من هي حق عنده، وهي باطل عند من هي باطل عنده»<sup>(١)</sup>.

٢-٢: ولكن عند التدقيق نجد أن هناك اشتباه وقع فيه المؤرخون؛ فإنهم وضعوا من ينكر إمكان المعرفة مكان من يشكك في أصل وجود العالم. يقول العالم الفرنسي بول فولكيه: «في بدو ظهور الفلسفة اليونانية لم يكن بعض كبار المفكرين يثق في المعطيات الحسية نظير «هراكليوس» و«بارميندس»، فإنهما يتفقان في رفض «شهادة الحواس» وعدم الاعتماد على أحكام العقل، وإن اختلفا في قصدهما في ذلك. فإن «هراكليوس» يرى أن الوجود عين الحدوث والتجدد، ولا يرى السكون للعالم، ومن هنا تخطأ

(١) ابن حزم، الفصل ٤: ١٤.



الحواس في إدراكها للسكون، ويقول: أن العين والأذن شاهدان خائنان للإنسان. وأما «بارميندس» وتلميذه «زنون الاليائي» فيعتقدان بامتناع الحركة؛ ويقولان: إن الحركة تستلزم الجمع بين نقيضين، وما تنقله الحواس من حركة محض اشتباه وخطأ». ثم يقول بول فولكليه: «هذه الآراء المتعارضة بين الفلاسفة أدت إلى ظهور السوفسطائيين وإنكار الفكر واعتبار المعرفة العقلية»<sup>(١)</sup>.

يتبين مما ذكره بول فولكليه أن «هراكليوس» و«بارميندس» لم ينكرا أصل وجود العالم الخارجي، بل أنكرا معطيات الحواس وأحكام العقل لعدم (في تصورهما) كفاية أو نجاعة آلات المعرفة. وبالتالي: يمكننا الادعاء كل الادعاء أنه لا يوجد من ينكر أصل وجود العالم الخارجي، ومع فرض وجود هذه الفرقة المريضة (كما ينقل عن كركياس) فعلاجها الوحيد هو الكي كما قال ابن سينا. وعلى هذا: نحن نركز في بحثنا هذا على مدعى الفرقة الثانية فقط أي: هل المعرفة بالعالم الخارجي ممكنة أو لا؟ وإذا كانت ممكنة فإلى أي مدى يكون ذلك؟

---

(١) الميتافيزيقا، بول فولكليه: ٥٤.

### ٣ - مدرسة الشكاكين:

ذكرنا في الفقرات السابقة أن أصحاب هذه المدرسة لا ينكرون أصل وجود العالم الخارجي، بل ينكرون إمكان المعرفة الصحيحة به، واستدل زعيمهم «بيرهون» بعشرة أدلة على استحالة المعرفة الصحيحة، ويُن من خلال حججه العشر تلك أنا لا ندرك الحقائق كما هي عليه في الواقع، بل ندركها حسب بنية قوتنا الإدراكية، أما ما هي الحقيقة في ذاتها؟ فلا يمكننا أبداً إبداء الرأي القطعي فيها، بل يجب أن نطرح مسائل العلوم المختلفة بنحو الاحتمال فقط. وبعد مجهودات عظيمة وشاقة من عظماء الفلسفة خمد لهيب الشكاكين، لكن ظهر من جديد هذا الاتجاه بعد حدوث تطورات كبيرة في العلوم الفلكية والطبيعية في الغرب على يد المثالية مثل: باركلي وشوبنهاور وأتباعهما، حيث طرح هذا الاتجاه نظريات في قيمة المعلومات تنتهي إلى الشك في إمكان المعرفة<sup>(١)</sup>.

والسر في ذلك أن بعض النظريات العلمية كانت قطعية عند أصحابها بحيث لم يكن بالإمكان تصوّر تسلل الشك إلى صحتها

(١) أصول الفلسفة ١: ١١٧، فلسفتنا: ١٣٦.

وبعد انتشار المدرسة التجريبية التي تبنت منهج التجريب والاختبار الميداني للظواهر الكونية بطلت تلك النظريات القديمة، مما جعلت أصحابها يشككون في إمكان معرفة الحقائق كما هي عليه. وما نأسف له هو تعميم المثاليين هذه الحالة (حالة الشك) على جميع العلوم التي منها الفلسفة العامة التي تتمحور بحوثها حول الموجود المطلق، الأمر الذي أدى إلى ظهور ما يسمى بفلسفة العلوم التي تبحث في معطيات العلوم ونتائجها ومناهجها التجريبية، والتي اغتصبت عرش الفلسفة العامة التي هجرت وتركت نهائياً.

والآن نتناول أدلة الشكاكين بالتحليل والنقد في ما يلي:

#### ١. خطأ الحواس والعقل:

يقول الشكاكون: إن الإنسان إذا حاول معرفة الحقائق يعتمد على آلتين من آلات الإدراك ليس أكثر، هما: الحواس والعقل، فهو إما أن يدرك الأشياء بقوة الحواس أو بقوة العقل، والاثنتان لا يخلوان عن الاشتباه؛ فإن للبصر وحده عدة أخطاء فإنه يرى العصا السليمة في الماء منكسرة، وعنق الحمامة في شعاع الشمس ذا ألوان مختلفة، والقطر النازل من السماء في صورة خط، وشعلة النار في

صورة دائرة، والنجمة الكبيرة صغيرة، وكذلك اللامسة فإنها مبتلية بأخطاء في الإدراك معروفة، وأما خطأ العقل فحدث ولا حرج فإن آراء العلماء المتضاربة والمتناحرة بمقربة منك وبمتناول يدك، فمن أين لنا العلم بصحة باقي المعلومات والنظريات. وبالتالي: لم يبق شيء نشق فيه في باب المعرفة، فالأفضل لنا أن نتواضع ولا ندعي ما لا طاقة لنا به، فيبقى الملاذ الوحيد هو الشك في كل شيء.

## ٢ - نقد:

١-٢: أولاً: معنى هذا الكلام هو أنكم تحاولون من خلال هذا الدليل الوصول إلى النتيجة التي تتبنونها والمتمثلة في أصالة الشك، وأن الطرف المقابل يقتنع ويعلم بصحة ما وصلتكم إليه، في حين أنكم تدعون استحالة حصول العلم مطلقاً.

٢-٢: ثانياً: معنى كشف الخطأ في التصورات الحسية والعقلية، هو أننا نعلم عدم مطابقتها مع الواقع، ولازمه العلم بوجود الخطأ في إدراكاتنا.

٣-٢: ثالثاً: ولازم آخر هو العلم بوجود أصل الواقع الذي جانبته تلك الإدراكات؛ وإلا فلا معنى لخطأ الإدراكات.

٤-٢: رابعاً: ولازم آخر هو أن نفس إدراك الخطأ والصور الذهنية المخالفة للواقع معلومة لنا.

٥-٢: خامساً: وفي النهاية يجب الاعتراف على الأقل بوجود المخطأ والحس والعقل المتصفين بالخطأ.

٦-٢: سادساً: وهذا الدليل نفسه دليل عقلي (وإن كان في حد ذاته مغالطة)، والاستناد عليه يعني الاعتراف بحجية العقل ومطلق الإدراك.

٧-٢: سابعاً: ومضافاً إلى هذا كله، ينطوي هذا الدليل على فرضية قبلية هي أن إدراك الخطأ حال كونه خطأ غير صحيح، فإذن: نفس هذا الدليل يستلزم الاعتراف بوجود عدة علوم، فكيف يمكنكم حينئذٍ إنكار العلم مطلقاً أو تشكيك في وقوعه؟

٨-٢: يجب أيضاً أن تجيبون عن هذا السؤال: هل الحكم بخطأ الحواس والعقل مصون عن الخطأ أو لا؟

هذه مجموعة أجوبة نقضية على مدعى هذه المدرسة، وأما الأجوبة الحلية فهي: أن الحواس لا يمكن أن يتسلل إليها الخطأ؛ على اعتبار أن المعطى الحسي يمثل مفردة ساذجة لا حكم فيها بشيء على

شيء آخر، فإنَّ الخطأ يتصور في دائرة الحكم فقط، أي: بعدما تنعقد القضية بموضوعها ومحمولها تأتي نوبة الحكم بأنَّ النسبة التي بين الموضوع والمحمول واقعة أو غير واقعة، فإذا كانت واقعة فلنا علم بالواقعية وإذا كانت غير واقعة فليس لنا علم بالواقعية. وأما تسرية خطأ العقل في مورد من الموارد إلى كل أحكام العقل فخلافاً التحقيق؛ لأنَّ أحكام العقل على قسمين: أحكام بديهية تشكل أساس البراهين الفلسفية والعلمية، والتي لا يتطرق إليها الخطأ بتاتاً، وأحكام نظرية قد يتصور فيها الخطأ وتقبل أن تصحح من خلال أحكام العقل الصحيحة.

### ٣ - معرفة الجزء بمعرفة الكل:

لا يمكن معرفة مفردة من مفردات الوجود بمعزل عن باقي المفردات؛ على اعتبار أنَّ العالم حقيقة واحدة متشابكة مترابطة كحلقات السلسلة الواحدة، فلا يمكن الإحاطة بحلقة إلاَّ بالإحاطة والوعي بكل حلقات السلسلة، وليس ثمة من شك أننا نجهل كثير من أسرار الوجود الأمر الذي يجعلنا نجهل كل شيء<sup>(١)</sup>.

(١) الميتافيزيقا: ٥٧.

## ٤ - نقد ونقض:

٤-١: أولاً: للإنسان نوعان من المعرفة: «المعرفة الإجمالية» و «المعرفة التفصيلية»، فقد نحيط بواقعية إحاطة إجمالية ونجهلها في نفس الآن بخصوصياتها وروابطها مع باقي الأشياء من مفردات العالم، ولكن عدم الإحاطة التفصيلية لا يشكل دليلاً على عدم الإحاطة الإجمالية. فالإشكال السابق صحيح في حالة كوننا نريد الإحاطة التامة بكل علل وروابط الشيء وباقي موجودات العالم فإذا أردت أن أعرف المنضدة التي أمامي هل هي مربعة أو مثثة الشكل، يكفي أن أستخدم قوة اللمسة والبصر لدرك وفهم ذلك وليس من الضروري أن أفهم من أين وكيف جاء خشبها وما هي علة إيجاده وما هي روابطها وباقي الأشياء؟ وكذلك درك المفاهيم الكلية ليست مشروطة بقيود وشروط خاصة؛ فإن فهمنا لنتيجة: ٢+٢ لا يرتبط بفهمنا لكل خصوصيات العدود (٢)<sup>(١)</sup>.

٤-٢: ثانياً: الأمر الذي لا يمكن المنازعة فيه أن الشكاكين في طرحهم لهذه الإشكالات اعتمدوا بوعي أو بدون وعي على سلسلة من العلوم والإدراكات الكاشفة عن الواقع، وبالتالي: كيف

---

(١) نظرية المعرفة، الشيخ السبحاني: ٥٧.

ينكرون إمكان المعرفة والحالة هذه؟ فإنَّهم قبلوا أنَّ الإدراكات الحسية والعقلية قد تخطأ أحياناً، مما يجعل المدركات والمعلومات مشوبة بالصحيح والخطأ، وأدركوا أنَّ معرفة الجزء لا تمكن بدون معرفة الكل، وأنَّ عالم الوجود عالم متشابه الأجزاء ومتلاحم المفردات، والمعرفة بواحدة متوقفة على المعرفة بالكل الباقي والمعرفة الصحيحة بـ«جزءٍ ما» تستدعي الإحاطة بجميع العوامل المؤثرة فيه. فكيف يدعي هؤلاء أنَّ عدم إمكان المعرفة بالواقع ويتبنون الشك المطلق في ما يتصل بالمعرفة؟ والطريف: أنَّ الشكك واعى بأنَّ العملية الاستدلالية هي عبارة عن انتقال من معلومات مسلمة إلى مجهولات يراد معرفتها؛ فإنَّ ادعاءه مثلاً أنَّ الجزء لا يعلم إلا بالكل دعوى تحتاج إلى مبادئ مسلمة حتى تثبت وتصبح مسلمة عند الجميع.

#### ٥ - اختلاف المفكرين:

ومن الأدلة التي أثارها الشكك في رد إمكان المعرفة اختلاف المفكرين فيما بينهم؛ فإنَّنا لا نجد العلماء على طول التاريخ متفقين على مسألة واحدة، فما يثبتهُ الأوَّل ويعتقده واقعية ينفيه الثاني ويحسبه محض تخيُّلٍ ووهماً من الأوهام، فإنَّ الصنف من النَّاس



المبتلين بمرض «دالتون» لا يميزون اللون الأحمر عن اللون الأخضر وحكمنا على الأفعال الاختيارية بالحسن والقبح نتاج التربية التي نشأنا عليها في بيئتنا، بحيث لو تربينا في بيئة تختلف عن بيئتنا لكان حكمنا على نفس الأفعال مختلفاً، مما يؤكد تأكيداً تاماً أن المعرفة الصحيحة غير ممكنة مطلقاً<sup>(١)</sup>.

#### ٦ - نقد ونقض:

إن الاشتباه الذي وقع فيه هؤلاء هو خلطهم بين «محدودية المعرفة» و«أصل المعرفة»؛ فإن دليلهم لا ينفي إمكان المعرفة أبداً بل ما يثبت أنه محدودية المعرفة وأنها أحياناً تكون مشوبة ببعض الأخطاء. فإن هؤلاء لا ينفون وجود أصل «الشهاب» في الخارج، بل أنهم يقولون إن الموجود في الخارج هو نقطة نورانية فقط تبدو لاشتباه البصر في صورة خط ملتهب ممتد. وهذا أمر لا ينكره أحد فإن تكامل المعرفة أحسن دليل على هذا المطلب؛ على اعتبار أن التكامل لا يأتي إلا عن نقص (خطأ) في المتكامل تركه وراءه وعرج

(١) الميتافيزيقا: ٦٠.

نحو الأعلى والأكمل. فإنَّ الهدف والغاية من هذا البحث هو إثبات إمكان المعرفة على نحو الموجبة الجزئية، فالكلام ليس في وجود الاختلاف أو عدم وجوده، وأنَّ في العالم أموراً محل اتفاق لدى كلِّ النَّاس، بل الكلام في أصل المعرفة بما هي معرفة وهل هي ممكنة أو لا؟<sup>(١)</sup> فالنَّاس لهم كثير من المعارف المسلمة والمقبولة ويجب أن لا يكون موقفهم متشاكساً ويحكمون بأنَّ لا قيمة للمعرفة.

والطريف: أنَّ الدليل الذي طرحه الشكاك يمكن استخدامه ضدهم؛ وذلك أنَّهم حينما يخطئون الحواس يقولون: حواسنا أخطأت أو عقولنا أخطأت، يشكل قولهم هذا نوع اعتراف بصحة قسم من المعرفة، فإذا قالوا في وصف الشهاب مثلاً: «خط ناري ممتد» وحكموا بخطئه، فإنَّهم لهم معرفة بأنَّ الشهاب واقعية خارجية تتمثل في قطعة حجرية خرقت فضاء الكرة الأرضية بحركة فائقة مصطدمة بغلاف هوائي حار مما جعلها تشتعل وتظهر للبصر في شكل خط ممتد. ففي مقابل خط ممتد توجد عدة قضايا صادقة مطابقة للواقع يعتقدها ويصدق بها كي يمكن أن يحكم على البصر بالاشتباه والخطأ، وتمكَّنه من تصحيح وتعديل هذا الخطأ.

(١) الميتافيزيقا: ٦١.

## ٧ - الدليل العقلي:

يقول الشكاك: إنَّ الدليل الوحيد الذي يحمل قيمة معرفية هو الدليل البرهاني، لكن هذا الدليل ممتنع التحقق لانطوائه على مغالطة مفضوحة؛ لأنَّ هذا البرهان إما أن يتوكأ أيضاً على برهان سابق وإما أن لا يتوكأ، فإذا توكأ على برهان سابق ننقل الكلام إلى البرهان الثاني وهكذا لا إلى نهاية، وإذا كان لا يحتاج إلى برهان سابق فلا قيمة علمية له. وإن قلت: يركز على قضايا بيّنة بنفسها، نقول: هذه دعوى تحتاج بدورها إلى دليل<sup>(١)</sup>.

## ٨ - نقد ونقض:

العجيب أنَّ الشكاك مثل الجزميين في عين كونهم ينكرون كل عملية استدلال يستعينون بالدليل العقلي لإثبات ادعائهم فإنَّهم يستدلون على عدم حجية العقل بنفس العقل؛ فإنَّ أساس الشق الأول من استدلالهم السابق بطلان التسلسل، وأساس الشق الثاني مسألة: «أنَّ المجهول لا يتوكأ عليه في حل مجهول آخر»

(١) الميتافيزيقا: ٦٢ - ٦٣.

وأساس الشك الثالث يتمثل في أصل فطري هو «لا يجب قبول أي مدعى بدون دليل». فالاستدلال الذي يركز - هو بذاته - على أصول عقلية وفطرية كهذه الأصول، كيف يكون أساساً لإبطال إمكان المعرفة.

والإشكالية التي ابتلوا بها أنهم لم يميزوا بين حقل البديهيات وحقل النظريات؛ فغاية ما في الباب أنه توجد لدينا سلسلة من الحقائق لا يتردد فيها أحد، ولا تحتاج إلى فكر وتأمل من ذلك على سبيل المثال:  $2+2=4$ ، وأنه لا يمكن أن يكون في يوم واحد ليل ونهار، وأن المساويين لثالث متساويان. فإن أمثال هذه القضايا لا يمكن الشك والاشتباه فيها، ولا تحتاج إلى دليل، ومع فرض إمكان التدليل عليها لا يزيد الدليل الإنسان يقيناً على يقينه السابق. ويقع في مقابل هذه البديهيات قضايا نظرية تختمل الخطأ لكن هذا لا يعني أننا إذا حاولنا التدليل عليها نحتاج إلى مقدمات تفتقر هي أيضاً إلى برهان آخر، بل يجب أن نصل في التحليل التنازلي إلى مقدمات بديهية تشكل بنفسها معياراً لبدايتها وينتفي التسلسل عند الوصول إليها<sup>(١)</sup>.

(١) نظرية المعرفة، للشيخ السبحاني: ٦٥، الميتافيزيقا: ٦٤ - ٦٥.

## ٩ - خلاصة:

ما يجب أن يقال للسفسطائي والشكاك: «إنك تدعي أنه لا يمكن الوصول إلى المعرفة اليقينية؛ نسألك: هل أنت متيقن بهذا المطلب أو لا، بل أنك شك فيه؟ فإن قلت: أنا على يقين به؛ فقد اعترفت على الأقل بمعرفة يقينية، فانتقضت دعواك. وإذا قلت: لا أنا لست متيقناً، فإنك إذن تحتل أن تكون لدينا معرفة يقينية وهذا يبطل دعواك من الأساس». «وأما إذا قلت: أنا أشك في إمكان المعرفة الجزمية، فنسألك: هل تعلم بأنك شك أو لا تعلم؟ فإن قلت: أعلم بأنني شك، فإنك لا تدعن بإمكان المعرفة فحسب بل تدعن بتحققها. وإن قلت: أشك في ما أشك فيه، فنقول لك: هذا هو المرض العضال أو أنك مغرض في قولك هذا فعلاجك عملي وليس علمياً»<sup>(١)</sup>.

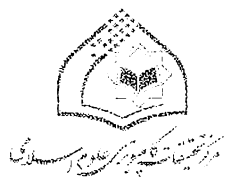
ونفس الحوار تجريه مع من يقول بنسبية المعرفة؛ فإنه إذا قلت: «كل قضية ليست صحيحة مطلقاً ودائماً»، نقول لك: هل تدعن بهذه القضية أو لا تدعن؟ فإن قلت: أذعن، فقد نقضت

(١) الأسفار ١: ٩٠.

الكلية السابقة واعترفت بقضية صحيحة مطلقة دائمية. وإن قلت:  
لا أذعن (بمعنى: أن مفاد هذه القضية كذلك نسي)، فإنك اعترفت  
بصحة الموارد التي لا تشملها هذه القضية<sup>(١)</sup>.

---

(١) تعليم الفلسفة ١: ١٤٥، نهاية الحكمة: ٣٨٦.



# أساسيات المعرفة





مرکز اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

قد تبين بجلالٍ من خلال المطالب التي عرضناها في الفصل السابق ضعف نظرية السفسطائيين والشكّاك، واتّضح لنا أنّه ثمة سلسلة من الإدراكات والمعارف لا تقبل الشك والترديد بأي وجه من الوجوه، ورأينا أنّ الأدلة التي أثارته هذه الجماعة تتركز في النهاية على هذه الطائفة من المعلومات والمعارف. وإذا شككنا في كل شيء لا يتيسر لنا الشك في وجود ذواتنا ووجود قوانا الشاعرة من قبيل: قوى الشم والإبصار والصور الذهنية وحالاتنا النفسانية وإذا شكك أحد في هذه الأمور فلنعلم أنّه قد اعتراه مرض عضال لا يشفيه منه إلّا الكيّ أو أنّه مغرض له قصد من وراء نكرانه للمعرفة يخفيه لأسباب تخصّه.

والآن: لكي نحيط علماً بالسّر الذي جعل هذه السلسلة من المعلومات لا تقبل التشكيك والتفنيد، يجب علينا دراسة أنواع وأقسام العلم والمعرفة؛ على اعتبار أنّ معارفنا منها الصحيحة لا تقبل الشك والخطأ ومنها التي تقبل ذلك، مما يدفعنا إلى البحث عن سرّ عدم قبول الأولى للخطأ دون الثانية، وبهذا ننتقل إلى بحث «قيمة المعرفة» الذي يعد من المباحث المهمة في حقل المعرفة.

## ١ - أقسام العلم:

يقسم العلم لدى الفلاسفة إلى علم حضوري وإلى علم حصولي، ومفاد العلم الحضوري: هو أن تكون الواقعية المعلومة بوجودها حاضرة لدى العالم، من ذلك على سبيل المثال: علم النفس بذاتها وبحالاتها الوجدانية والذهنية؛ فإن النفس لا تحتاج في وعيها بذاتها وحالاتها الوجدانية وإدراكاتها إلى واسطة أو صورة. ومفاد العلم الحصولي: هو أن لا تكون الواقعية حاضرة بوجودها لدى العالم، بل تكون حاضرة بماهيتها أو مفهومها<sup>(١)</sup>، من قبيل: علم النفس بالأمور الخارجية كالسما والأشجار الحاضرة بصورها لدى النفس لا بوجوداتها<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا يتبين: أن العلم والمعلوم في العلم الحضوري يشكلان حقيقة واحدة، يعني: أن وجود العلم عين وجود المعلوم وانكشاف المعلوم عند العالم بواسطة حضور نفس المعلوم لدى

(١) الأسفار ٣: ٢٨٨ - ٢٨٩، و٦: ١٥٤-١٥٦، تعليقة على نهاية الحكمة: ٣٤٩.

(٢) نهاية الحكمة: ٣٣٦، تعليقة على النهاية: ٣٤٩.

العالم، بخلاف العلم الحسولي الذي تكون فيه واقعية المعلوم غير واقعية العالم، ويتم انكشاف المعلوم بواسطة حاضرة لدى العالم. ويندرج علمنا ووعينا بالوقائع الخارجية عن أذهاننا تحت العلم الحسولي؛ فإتينا نحيط بها بواسطة صورة حاضرة عندنا فالمعلوم بالذات هو الصورة الذهنية والمعلوم بالعرض هو الواقعية الخارجية، فعلمنا مثلاً بالشجرة الخارجية يتم بوعينا بصورتها الذهنية، فالشجرة الذهنية معلومة لنا بالذات والشجرة الخارجية معلومة لنا بالعرض، وتشكل هذه الوساطة الفارق الأساس بين العلمين، فالعلم الحسولي هو إدراك ووعي بالواقعات الخارجية بواسطة، والعلم الحسوري هو إدراك ووعي بالواقعية بدون واسطة<sup>(١)</sup>. ويندرج علمنا بذاتنا وحالاتنا النفسانية من إرادة

---

(١) إن هذا التقسيم تقسيم عقلي دائر بين النفي والإثبات (يعتبر باصطلاح المناطق من التقسيمات الثنائية يشملها الحصر العقلي) وبالتالي : لا يمكن فرض حالة ثالثة، فالعلم لا يخرج عن هذين القسمين : إمّا ثمة واسطة بين ذات العالم وذات المعلوم الخارجي تحصل بفضلها الكاشفية، ويسمى العلم في هذه الحالة : العلم الحسولي، وإمّا لا توجد واسطة في البين

وتصميم ولذة وطعم وغيرها تحت العلم الحضورى؛ فمن البين أننا لا نحيط بهذه الواقعيّات بواسطة صور حاضرة عندنا، بل هي متحدة مع ذاتنا ونشعر بها بنحو مستقيم، ونستخلص فيما يلي الفروق الموجودة بين العلمين:

الفارق الأول: يتمثل هذا الفارق في وجود واسطة في العلم الحسولى وعدم وجودها في العلم الحضورى.

الفارق الثانى: يتمثل الفارق الثانى في أن العلم الحضورى لا يقبل الشك والترديد؛ فإنه لا يمكن الشك في علمنا بذاتنا وحالاتنا الداخلية بوصفها تشكل عين ذاتنا، فحتى السفسطائين الذين يشككون في كل شيء لا يمكنهم الشك في أصل الإنسان بصفته يشكل لديهم مقياساً ومعيّاراً للأشياء.

الفارق الثالث: يتمثل هذا الفارق في أننا لا نحتاج في العلم الحضورى إلى آلات في عملية الإدراك، بل عين الواقعية حاضرة لدى المدرك بلا توسط شيء آخر، فلذا أردنا شيئاً ما فلا يحتاج وعينا



بإرادتنا إلى أمر خارج عن نفس الإرادة، فيما نحتاج في الإدراك الحسولي إلى آلات النفس (قوة النفس) كقوى الإدراك (قوة البصر قوة الشم، وقوة السمع و...).

النتيجة الحاصلة من التحليل السابق: أن العلم الحسوري يتمثل في إدراك بسيط لا يقبل التجزئة، وليس عبارة عن قضية من قبيل «أنا موجود» أو «أنا عالم» المركبة من عدة مفاهيم، إذن: العلم بالنفس وأحوالها: عبارة عن وعي شهودي بسيط بذاتنا بدون واسطة<sup>(١)</sup>.

المطلب الآخر: إن وعينا بالصورة الذهنية والمفاهيم - كما سبق وأشرنا - وعي حضوري؛ فلا تدركها النفس من خلال صورة ذهنية ثانية، وإلاً احتجنا إلى صورة ثالثة ثم إلى رابعة وهكذا دواليك فلا تقف السلسلة. ومن هنا يمكن أن يخطر هذا الإشكال في الذهن: كيف يكون شيء واحد في نفس الوقت علماً حضورياً وعلماً حصولياً؟ والجواب: إن الصورة الذهنية لها حيثتان: الأولى: الحيثية الاستقلالية تمثل من جهتها واقعية من الواقعيات متحققة في

(١) الأسفار ٣: ٢٨٨ - ٢٨٩، و٦: ١٥٤-١٥٦.

دائرة النفس تحيط بها النفس إحاطة قيومية، فتكون بهذه الحيشية حاضرة عند النفس تعلم بها علماً حضورياً. والثانية: الحيشية الآلية حيث تمثل من جهتها مرآة للأشياء الخارجية تعلم النفس من خلالها بالوقائع الخارجية علماً حصولياً.

## ٢- التدليل على العلم الحضورى:

ذكر العلامة الطباطبائي تفتُّ في كتابه الشريف «نهاية الحكمة» دليلين على مسألة العلم الحضورى نعرضهما في ما يلي:

١-٢: الدليل الأول: يقول تفتُّ في بيان الدليل الأول: «... لأنَّ المفهوم الحاضر في الذهن كيفما فرض لا يأبى بالنظر إلى نفسه الصدق على كثيرين، وإنَّما يتشخَّص بالوجود الخارجى، وهذا الذى يشاهده من نفسه ويعبر عنه بأننا أمر شخصى بذاته غير قابل للشركة بين كثيرين، وقد تحقق أنَّ التشخَّص بالوجود، فعلمنا بذاتنا إنَّما هو بحضورها لنا بوجودها الخارجى الذى هو عين وجودنا الشخصى المترتب عليه الآثار»<sup>(١)</sup>.

٢-٢: تحليل الدليل: يتبنى الدليل السابق على التفكيك بين خاصية المفهوم وخاصية المصدق؛ فلخاصية التي يمتاز بها المفهوم أنه من حيث هو مفهوم يقبل الصدق على كثيرين، وخاصية المصدق أنه لا يقبل الصدق إلا على نفسه (في العبارة تسامح ما؛ لأن المصدق من أساسه فاقد للانطباق وعدم خاصية الانطباق)، وبعبارة اصطلاحية: لا يقبل الصدق على كثيرين من باب السالبة بانتفاء الموضوع. وبعد بيان هذه المقدمة نشكل قياساً من الشكل الثاني يعطينا نتيجة سالبة: علمنا بذاتنا (نفسنا) ليس يصدق على كثيرين (صغرى القياس)، وعلمنا بمفهوم ذاتنا يصدق على كثيرين (كبرى القياس)، فعلمنا بذاتنا ليس علمنا بمفهوم ذاتنا (النتيجة) أي: علمنا بذاتنا ليس من سنخ العلم بالمفاهيم (العلم الحصولي).

٢-٣: الدليل الثاني: يقول تثنؤ في تقرير هذا الدليل: «لو كان الحاضر لذواتنا عند علمنا بها هو ماهية ذواتنا دون وجودها، والحال أن لوجودنا ماهية قائمة به كان لوجود واحد ماهيتان موجودتان به وهو اجتماع المثليين وهو محال»<sup>(١)</sup>.

(١) نهاية الحكمة: ٢١١.



٢-٤: تحليل الدليل: يبتني هذا الدليل على مصادرة مفادها: أن الذهن يتحد مع الخارج اتحاداً ماهوياً في العلم الحسولي وبالتالي: لو أدركنا ذاتنا حصولياً لكانت لنا ماهية في الذهن وماهية في الخارج، مما يستدعي تحقق ماهيتين لحقيقة واحدة، وهو محال.

### ٣- نقد ونقض:

٣-١: الظاهر أن البرهان الثاني للعلامة غير تام؛ على اعتبار أن الأمر على هذا المنوال في كل إدراك حسولي، فإننا إذا علمنا بشيء ما فيعني هذا: أننا علمنا به من خلال ماهيته المتحققة في الذهن المطابقة لماهيته المتحققة في الخارج، فالشيء الواحد له ماهية واحدة في مرتبتين: ذهنية وخارجية. فالعلامة تؤكد كآنه بنى على أن العلم الحسولي لا ينطبق على العلم بالنفس، ولا أدري بأي دليل أخرج النفس التي هي واقعية كجميع الواقعيات عن هذا القانون.

٣-٢: إن الماهية الذهنية للنفس عبارة عن مفهوم منتزع من النفس الخارجية، نعم هي وإن كانت شأن من شؤون النفس الخارجية، لكن حيثية المفهومية للنفس تمثل مرتبة للنفس وحيثية

وجود النفس يمثل مرتبة أخرى لها، فلا مانع عقلاً من أن تكون الحقيقة واحدة ماهيتان: ماهية في مرتبتها الوجودية وماهية في مرتبتها المفهومية (الذهنية). فقولنا: يلزم اجتماع المثليين، صحيح لو كان ذلك من نفس الجهة والحيشية، لكن الجهتين مختلفتان؛ فإن الجهة التي بها تكون الواقعية ماهية مشخصة غير الجهة التي تكون بها غير مشخصة (مفهوم). فالوحدة بين الماهيتين وحدة نوعية وليست وحدة شخصية، بخاصة إذا علمنا أن الماهية المتشخصة لا تحل الذهن أبداً<sup>(١)</sup>.

تنبيه: إن المسألة في حد ذاتها من المشاهدات (الوجدانيات) والمشاهدات لا يبرهن عليها بل لا يمكن التدليل عليها؛ لأن التدليل على الشيء فرع غياب الشيء، والشهود حضور، فدليل العلامة الأول في حقيقته دليل تنبيهي على وجود العلم الحضورى<sup>(٢)</sup>.

(١) تعلية على النهاية: ٣٥٠.

(٢) ذكر صدر المتألمين في حاشيته على حكمة الاشراق : ((اعلم أن إثبات الأشياء التي يخفى وجودها على الإنسان بالعلم الحضورى قد يكون بعلمها  
بـ

#### ٤ - العلم الحضورى وعصمته عن الخطأ:

يتضح من البيانات السابقة السرّ في عدم تسلل الخطأ والاشتباه إلى العلم الحضورى، وذلك أنّ الواسطة بين العلم والواقع الخارجى منتفية في البين؛ فإنّ الصدق والكذب يتحققان إذا كان هناك معلوم بالذات نريد أن نطبقه على المعلوم بالعرض، وإما إذا كان المعلوم بالذات عين المعلوم بالعرض فلا مجال للسؤال: هل العلم مطابق مع متعلقه أو غير مطابق معه؟ فحين أعلم بنفسى مثلاً يمثل علمى شهودى بنفسى، والشهود حاضر غير غائب حتى يسأل عن كشفه الصحيح أو غير الصحيح.

يبقى مطلبان تحسن الإشارة إليهما:

الأول: قد يشتبّه الإنسان بجعل العلم الحضورى علماً حصولياً لتزامنهما معاً في وعيه.

⇨

كما في برهان اللّم، وقد يكون بمعلولاتها كما في برهان الإن، ووهم الإنسان لا يذهب إلى إثبات ذاته بعقله فإن وجوده له أظهر من وجود الله)، شرح حكمة الاشراق: ٢٩٢، ومن فلاسفة الغرب الذى توصل إلى هذه الحقيقة كبريال مرسل (الميتافيزيقا) لبول فولكبي: ٣٢١.

بيان ذلك: إن ذهن الإنسان كما يقدر على إدراك الوقائع الخارجية ويصنع لها مفاهيم خاصة بها، كذلك يستطيع أن يخلق لمعلوماته الحضورية مفاهيم وصوراً يعيها بها وعياً حصولياً، من ذلك على سبيل المثال: الإنسان يدرك ذاته وحالاته حضورياً، ثم يصنع لها مفاهيم يجعلها واسطة لفهمها فهماً حصولياً، ونظراً لكون الوعي بهذه المفاهيم (الواسطة) متزامناً للوعي الحضورى بها، قد يسري الخطأ المتصور فيها إلى العلم الحضورى، لذا يجب الانتباه إلى هذا الخلط الخطير. الثاني: العلم الحضورى حقيقة ذات مراتب لأنه من سنخ الوجود والوجود حقيقة مشككة تتفاوت مراتبه شدة وضعفاً، وبالتالي: يتبعه العلم الحضورى شدة وضعفاً، فمعرفة النفس بذاتها وحالاتها أقوى وأشد من علمها الحضورى بخالقها الناتج من توجهها إلى البدن وخلودها إلى الأرض، وإذا توجهت بترك تعلقها بالدنيا ومقتضيات البدن المبالغة تشرق عليها الأنوار: «أىكون لغيرك من الظهور ما ليس لك؟». وعلة ضعف العلم الحضورى راجع أولاً إلى عدم الالتفات والتوجه إلى الأعلى، وثانياً إلى أن النفس ضعيفة إلى درجة أنها تنكر هذا الإدراك الضعيف من

العلم الحضورى، والأخطر من هذا أنها تطبق المفهوم المنتزع من الشهود الضعيف [تطبقه] اشتباهاً على الأصنام من شمس، حجر خشب ... وما أجمل تعبير القرآن عن هذه الحالة العجيبة في الإنسان إذا توجه إلى الملائكة الأعلى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - النفس وبداية المعرفة:

تكون النفس في بداية تكونها وحدوثها فاقدة لكل علم حصولى، بل فاقدة حتى للذهن ولوعيا بذاتها وعياً حصولياً؛ لأنَّ عالم الذهن في جوهره هو نفس هذه الصور والمفاهيم (الظرف هو المظروف)<sup>(٢)</sup>، وبعد ذلك تبدأ تصنع بفعالية ونشاط خاص مخزونها المفاهيمي، وتبدأ تعي ذاتها وحالاتها والمحيط الموجود حولها، فيبدأ الذهن يتشكل درجة بدرجة. ولكن هذا لا يتنافى وعيها بذاتها وحالاتها وخالقها وعياً حضورياً؛ على اعتبار أنَّ الملاك في الوعي

(١) العنكبوت: ٦٥.

(٢) نهاية الحكمة: ٣٦٣.

الحصولي هو القوة الخيالية، وفي الوعي الحضور هو التجرد عن المادة وأحكامها (كما سيأتي بيانه)، فإن الرضيع الذي لا يملك أي تصور عن حاله وشؤناته (إلى مدة معلومة) يعي واقعيته وجوعه ولذته وإرادته<sup>(١)</sup>.

## ٦- ملاك العلم الحضورى:

يتمثل العلم الحضورى كما ذكرنا سابقاً في حضور واقعية شيء عند شيء آخر، ولا يتحقق هذا الحضور إلا في حالة تحقق الوجود الجمعي وانتفاء الفواصل الزمانية والمكانية التي تمثل خصائص المادة الأساسية. وتوضح ذلك: إن كل وجود فاقد للمكان والزمان والأبعاد والامتداد المسبب للتفرقة والغيبية، لا يغيب عنه وجوده وحالاته مطلقاً، بل هما حاضران وموجودان لديه ويعي بهما كل الوعي. وبعبارة ثانية: إن ملاك العلم الحضورى هو أن واقعية المعلوم ليست محتجبة ومختفية عن واقعية العالم، وهذا لا يتحقق إلا عند غياب الامتداد المكاني والزمني، سواء أكانت

(١) أصول الفلسفة ١: ٢٩.

الوحدة بين واقعية العالم وواقعية المعلوم حقيقية نظير علم النفس بذاتها أم كانت واقعية المعلوم مرتبطة بواقعية العالم نظير علم النفس بآثارها وأطوارها: «كل واقعية أدركناها بالعلم الحضورى فهي عيننا أو هي من المراتب التابعة لنا»<sup>(١)</sup>.

#### ٧- المعيار المعرفي الديكارتي؛

حاول ديكارت أن يبني فلسفته على أصل متين لا يتزلزل وصل إليه بعد تأملات عميقة ومطالعات كثيرة، يتمثل هذا الأصل في: «أنا أشك فأنا موجود»؛ بمعنى: أنني إذا شككت في كل شيء لا يمكن لي أن أشك وأتردد في وجودي، إذ لا معنى للشك بدون شك. فالأصل الذي شيد أركانه ديكارت يرجع في حقيقته إلى المقولة التالية: «أنّ الشك لا يقبل الشك»<sup>(٢)</sup>، ومن هذا الأصل الأصيل فرع أصل وجوده هو بوصفه حاملاً للشك. وإذا تأملنا في ملاك عدم قبول الشك أن يعتريه الشك لدى ديكارت، فنجده يعود في نهاية

(١) أصول الفلسفة ١: ٢٨٧.

(٢) يعد الغزالي من الذين اتخذوا الشك المعرفي كمنطلق إلى اليقين بالحقيقة.

المطاف إلى «الوضوح والتمايز»، فهذا الملاك يمكننا أن نفرق بين المعرفة الصحيحة والمعرفة الزائفة، وأفضل علم ونموذج معرفي يتجلى فيه هذا الملاك هو علم الرياضيات، ومن هنا حاول أن يشيد فلسفة جديدة تنطوي على صفاء ووضوح الرياضيات<sup>(١)</sup>.

## ٨ - نقد ونقض:

يرد على تحليل ديكارت للمعرفة إشكال هو: إنه استدل على وجود نفسه بوجود «الشك»؛ والحال أن الشك كحالة نفسية متأخر رتبة في وجوده على وجود النفس (تقدم الموصوف على الصفة)، فإنه في قوله: «أنا أشك» فقد شك شكاً مقيداً (أي: شك منسوب إلى نفسه هو)، فإدراكه لذاته سابق على إدراكه لحالة الشك التي تعتريه، وبالتالي: لا معنى لأن يقول مرة ثانية: «فأنا موجود». وبعبارة فنية: إن ديكارت كان في صدد إثبات شيء لشيء (هلية مركبة) ولم يكن في صدد إثبات أصل الشيء (هلية بسيطة)

(١) لا يمكن جعل «الوضوح والتمايز» ملاكاً لمعرفة الفكر الصحيح من غير الصحيح، وذلك أولاً: أن الوضوح والتمايز مقولتان غير واضحتين، ثانياً: قد يكون ما هو واضح عندي غير واضح عندك، ثالثاً: لا دليل على ذلك.

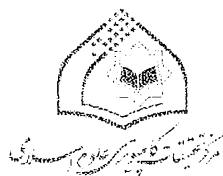


فإنه أثبت الهلية المركبة قبل الهلية البسيطة، وهذا خطأ من الناحية المنطقية لأن الهلية المركبة متفرعة على الهلية البسيطة، بمعنى: أن الوصف متوقف على وجود الموصوف في مرتبة سابقة على الصفة. فإذن: كل محاولة لإثبات أصل وجود النفس من طريق إثبات وجود أوصافها وأطوارها، تعتبر محاولة خاطئة تنطوي على خلل منطقي. وأما السرّ في كون «لا يمكن الشك في أصل الشك» فراجع إلى أصل العلم الحضورى بالنفس وأحوالها وأطوارها، فكما لا يمكن الشك في أصل وجودنا لا يمكن أيضاً الشك في أحوالنا بوصفها حاضرة غير غائبة عنا مطلقاً، والحاضر غير الغائب لا يسأل أبداً عن وجوده أو يشك فيه<sup>(١)</sup>.

---

(١) الاشارات والتبهيّات ٢، النمط الثالث: ٢٩٢.

# العلم المصولي



تناولنا إلى هنا بالتحليل العلم الحضورى، وقلنا: إنه عبارة عن إدراك الواقعيات العينية إدراكاً مستقيماً بدون واسطة، وهو نوع وعي لا يعتره الشك أبداً، ولكنه بوصفه علماً قليلاً الموارد لا يستطيع بمفرده حل الإشكالية المعرفية بكل تفرعاتها، فلا بد أن نبحث عن طريق آخر لمعرفة الحقائق، ودراسة قيمته المعرفية وما هو معيار الحقيقة المتبعة فيه، والطريق الذي يقع في عرض (قسماً) العلم الحضورى لدى العقل هو العلم الحصولى.

## ١ - التصور والتصديق:

ينقسم العلم الحصولى باعتبار ما إلى تصور وتصديق، وونتاول بالتحليل في ما يلي كل قسم على حدة:

١ - ١: التصور: التصور في اللغة بمعنى: النقش، قبول

الشكل، وفي الاصطلاح عبارة عن الإدراك الساذج من دون حكم والذي من شأنه الحكاية عن ما وراء ذاته، نظير: تصور الشجرة النور، البحر ...

١ - ٢: التصديق: التصديق في اللغة بمعنى: الاعتراف بالإيمان، وفي الاصطلاح أهل المنطق والفلسفة بمعنى: تصور مع حكم (تصور حكمي)، نظير: حكمنا: بأن الشمس ساطعة، وأن الماء سائل و...

ومعناه لدى بعض الفلاسفة مثل جان استوارت ميل<sup>(١)</sup>: انتقال الذهن من تصور إلى تصور آخر على أساس قواعد تداعي المعاني<sup>(٢)</sup>، فتقتصر وظيفة الذهن وفق هذه النظرية على تصور الموضوع والمحمول فقط، وباقي النشاط يقع على عهدة قواعد تداعي المعاني. والتحقيق: أن طبيعة التصديق تختلف عن ظاهرة تداعي المعاني؛ إذ تصدق في موارد قواعد تداعي المعاني ولا يتحقق التصديق، وقد يتحقق العكس أي: يتحقق التصديق ولا يتحقق تداعي المعاني.

---

(١) John Stuart Mill.

(٢) يقول : عندما نشاهد أو ندرك شيئين معا دائما بحيث لا يفرقان في مورد على الإطلاق، يفرض بنا تصورهما منفكين عن بعضهما البعض - بحكم القوانين الأولية لتداعي المعاني - إلى مواجهة مشاكل متضاعفة لا يمكن رفعها آخر الأمر.

وما يجب الالتفات إليه هو أنَّ القضية وإن كانت من أقسام التصور لكنها تختلف عن مكوناتها (الموضوع والمحمول) في أنها تحكي الواقع وأمرأً خارجياً، وتفترق عن التصديق إذ قد يعرضها الشك في عكسها للواقع كما سيتبين في الفقرة الآتية<sup>(١)</sup>.

## ٢ - أجزاء القضية:

عالج العلماء مكونات التصديق واتفقوا على أنَّ القضية أمر أساسي لعملية التصديق، وأنها متشكلة من مفردات: ١- الموضوع

---

(١) هناك اختلاف في معنى التصديق بين العلماء، حيث يعرفه صدر المتألهين (ره): ((العلم : أما تصديق وهو الاعتقاد الراجح سواء بلغ حد الجزم...))، ويعرفه بعضهم : ((العلم إن كان إذعاناً للنسبة فتصديق وإلا فتصور))، ويعرفه ابن سينا : ((العلم ضربان تصور يراد به إدراك المفرد كما يتصور الإنسان أو الحساس، وتصديق يراد به إدراك النسبة فيضم مفردان أحدهما إلى الآخر، وتعتقد بينهما صلة تحتل الصدق أو الكذب مثل قولنا : الإنسان حساس)) الشفاء المنطق ١ المدخل، ويعرفه صاحب كشف المراد : ((التصديق... هو الحكم اليقيني بنسبة أحد المتصورين إلى الآخر إيجاباً أو سلباً، وإنما شرط في التصديق الجزم...)) كشف المراد المسألة الثانية: ١٧٢.

٢- المحمول، ٣- النسبة الحكمية، لكنهم اختلفوا في النسبة السلبية حيث ذهب بعضهم إلى أن النسبة السلبية نسبة مجازية؛ فإننا في الحقيقة أمام سلب الحكم فحين نقول: كيد الشيطان ليس بشيء فلسنا نعني: أننا حكمنا على الشيطان بأمر ما؛ على اعتبار أن حقيقة الحكم تتمثل في إيجاد اتحاد بين الموضوع والمحمول، ولكن حينما نقول: أن الموضوع لا يتحد مع المحمول يعني: لم نحكم على هذا الاتحاد، ففي الواقع ثمة عدم حكم، وعدم الحكم غير الحكم بالعدم، ففي المثال السابق لا تدل العبارة على أن كيد الشيطان له شيء بل تدل على مجرد انفكاك الشيئية عن كيد الشيطان، وأن كيده ضعيف لا حول ولا قوة له خارج عن حول الله وقوته، وبالتالي: تكون النسبة دائماً ثبوتية. وثمة بحث آخر يتمثل في أن الهلية البسيطة لا تنطوي على النسبة؛ على اعتبار أن الهلية البسيطة عبارة عن ثبوت شيء، ولا معنى للنسبة بين الشيء ونفسه، وفي هذا يقول العلامة الطباطبائي رحمته في «نهاية الحكمة»: «النسبة التي يعتبرها المناطق في القضية ليست في الواقع جزءاً من القضية، بل تشكل شرطاً لتحقيق الحكم؛ بمعنى: إن القضية متشكلة فقط من الموضوع

والمحمول والحكم، لكن النفس كي تقدر على الحكم يجب أن تلاحظ نسبة ما، وملاحظة النسبة غير أنها جزء من أجزاء القضية»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا يتضح: أن القضية - من زاوية منطقية - لا يمكن أن تكون بدون حكم، فإن الفرق بين التركيب التام (القضية) والتركيب الناقص مثل التركيب الإضافي والوصفي يكمن في هذا الأمر (الحكم)، فإذا انتفى الحكم فلا تتشكل القضية، والحكم يلزمه وجود النسبة سواء أكانت جزء القضية أو شرطاً في تحقق الحكم. وأما ما يقوله صدر المتألهين رحمته وتبعه آخرون بأن القضية السالبة عبارة عن سلب الحكم وليس الحكم بالسلب، فهذا الكلام ناظر في الحقيقة إلى محتوى القضية؛ أي: أنهم يتكلمون من زاوية فلسفية وإلا فلا يمكن أن تكون عندنا قضية من زاوية منطقية ولا يكون عندنا حكم.

(١) نهاية الحكمة: ٢٥.



### ٣ - اقسام التصور:

يقسم التصور بلحاظ ما إلى تصور كلي وتصور جزئي

ونحاول في هذه الفقرة دراسة خصائص كل من المفهومين:

٣-١: التصور الكلي: هو عبارة عن مفهوم يعكس أشياء أو أشخاص متعددة نظير: مفهوم الإنسان الذي يصدق على أفراد غير محدودة<sup>(١)</sup>، فإنَّ ذهن الإنسان يقدر بعد ما يدرك مجموعة صور جزئية على صنع معنى يقبل الصدق والانطباق على كثيرين. والآلية التي يستخدمها الذهن في ذلك هي أنه بعدما يدرك الحيشية المشتركة في الأفراد والحشيات المختصة يفرز المشترك عن المختص ثم يستخلص المشترك (الصورة الكلية) الذي يصدق على جميع الأفراد، وهذا النحو من التصور يسمى التعقل أو التصور الكلي، وهذه الآلية التي تبناها كثير من الفلاسفة الإسلاميين يطلق عليها «نظرية الانتزاع» التي تقع في مقابل نظرية «التعالي والتصعيد» التي تبناها الفيلسوف الكبير صدر المتألهين رحمته الله<sup>(٢)</sup>.

(١) شرح المنظومة، قسم المنطق: ١٦.

(٢) تعليقة على الشفاء: ٢١٩، الاسفار ١١: ٣٦٩.

٣-٢: معنى الانطباق: لا نعني بالانطباق هنا الانطباق الخارجي كما ينطبق القالب الصناعي على الأشياء الكثيرة، بل المراد هو أن الذهن إذا أدرك أحد مصاديق الماهية ثم أدرك بعده مصداق آخر يجده هو نفسه الذي أدركه في المصداق الأول، مثلاً: إذا أدرك الذهن صورة زيد الخيالية ثم انتزع منها مفهوماً كلياً (الإنسان)، ثم وجد أن هذا المفهوم الكلي (الإنسان) يصدق ويحمل على غير زيد من الأفراد، فمفهوم الإنسان صورة عقلية لهذه الأفراد، فتعريف الكلي في ضوء هذا التحليل: مفهوم ينطبق على كثيرين.

٣-٣: التصور الجزئي (في مرتبة الحس): وهو تصور ساذج يحصل جرّاء ارتباط إحدى الحواس الخمس بالواقعيات الخارجية<sup>(١)</sup> من قبيل: إذا فتح الإنسان عينيه فرأى منظرًا جميلًا أمامه، أو يسمع صوتاً أثناء مكالمته صديقه، وبقاء هذه التصورات الحسية منوط ببقاء الارتباط مع الواقع الخارجي.

٣-٤: التصور الجزئي (في مرتبة الخيال):

(١) الأسفار ٣: ٣٦٠.

بعدما يدرك الذهن الصورة الحسية للشيء الخارجي حال ارتباطه معه، يحتفظ بالصورة المدركة في الحافظة بعد انقطاعه عن الخارج، ويقدر أن يسترجعها على مستوى الإدراك متى شاء، فهذا الإدراك المنقطع عن الخارج المحفوظ يسمى: الإدراك الخيالي. وتفرق الصورة الخيالية عن الصورة الحسية في أمور:

الأول: إن الصورة الخيالية ليست واضحة وضوح الصورة الحسية.

الثاني: الصورة الحسية لها وضع خاص وجهة خاصة (يمين أو شمال) ومكان خاص، بخلاف الصورة الخيالية الفاقدة لهذه الخصوصيات.

الثالث: يشترط في الإدراك الحسي التماس مع الخارج، وينتهي هذا الإدراك بانتفاء هذا التماس، بخلاف الإدراك الخيالي فلا يحتاج إلى الارتباط بالخارج، ولذا يخرج الإدراك الحسي عن اختيار الشخص المدرك، فإن الإنسان لا يمكنه إدراك الشخص الغائب بالإدراك الحسي وشم رائحة وردة غير موجودة، بخلاف الحال في الصور الخيالية<sup>(١)</sup>.

---

(١) الاشارات والتنبيهات ٢: ٣٢٤.

٣-٥: التصور الوهمي: وهو عبارة عن تصور يشبه التصور الخيالي، من قبيل تصورنا لحالة نفسانية خاصة تعترينا كالخوف في زمان معين أو محبة خاصة في لحظة معينة، فهذا التصور المدرك من هذه الحالة الشهودية (العلم الحضورى) يسمى: إدراك وهمي<sup>(١)</sup> وقد يطلق على الصورة التي لا تطابق الخارج من قبيل: جبل من ذهب، واد من زئبق<sup>(٢)</sup>.

٣-٦: الصور الحسية والخيالية صورتان جزئيتان: عرفنا الكلبي بأنه مفهوم ينطبق على كثيرين، والجزئي بأنه مفهوم لا يصدق على كثيرين، وجلي أن كل مفهوم كلي، فالسؤال: كيف

---

(١) يعرف صاحب ((شرح تجريد الاعتقاد)) الوهم كالتالي : ((هي قوة تدرك المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات، كالصداقة الجزئية والعداوة الجزئية)) شرح تجريد الاعتقاد: ١٥٠ المسألة: ١٤.

(٢) من أجل التحقيق أكثر في القوة الواهمة ارجع إلى النجاة: ٣، ١٦٢ الاشارات النمط الثالث: ٣، ٦٢، الاسفار ٣: ٣٦٠ - ٣٦٢، شرح تجريد الاعتقاد ص ١٥٠ - ١٥٢، الفصل الثالث من المقالة الرابعة من الفن السادس طبيعيات الشفاء، تعليقة على نهاية الحكمة للشيخ مصباح: ٣٨ -

يتصف مفهوم ذهني بعدم الصدق على كثيرين ؟ بالضرورة أن هذه الحالة ناشئة من جهة غير جهة المفهوم بما هو مفهوم، فما هي هذه الجهة ؟ يجيبون: أن خاصية عدم الصدق على كثيرين في الصور الحسية والخيالية ناشئة من جهة اتصالهما بالمادة، فإذا أدركنا أمراً خارجياً جزئياً متعلقاً بالمادة فمحال أن يصدق على كثيرين، وإلا فالصورة من حيث هي صورة ذهنية لا تأبى الصدق على كثيرين نعم: الصورة الحسية مرتبطة بالمادة على نحو مستقيم، والخيالية مرتبطة بها بواسطة الصورة الحسية<sup>(١)</sup>.

ويمكننا المناقشة<sup>(٢)</sup> في هذا التحليل؛ وذلك: لأن الارتباط بالخارج لا يشكل إلا علة إعدادية لحصول الإدراك الحسي، أي: أن الارتباط بالمادة يشكل أرضية لبروز الإدراك الحسي، كما يشكل الإدراك الحسي أرضية لبروز الإدراك الخالي، وهذه الأرضية لا ربط لها بأصل الإدراك. فإذا سلمنا أن الارتباط بالمادة في الإدراك الحسي فإننا لا نسلّمه في الإدراك الخالي، كيف يتصور الارتباط في صورة

---

(١) نهاية الحكمة: ٣٣٤.

(٢) المناقشة من الاستاذ مصباح اليزدي في التعليقة على نهاية الحكمة: ٣٦٤.

تصورناها بالتصور الحسي من عشرين سنة مثلاً، وإذا كان الارتباط ملاك الجزئية فالصورة العقلية مرتبطة بالخارج ببركة الصورة الخيالية، مما يجعلها صورة جزئية. والحاصل: إنَّ صرف الارتباط بالخارج لا يشكل دليلاً على أنَّ الإدراك الحسي إدراك جزئي، فلا ربط منطقي بين الأمور المعدة وأرضية الإدراك وكون المدرك جزئياً.

٣-٧: السبب الحقيقي: والذي يمكن قوله في هذه المسألة: أنَّ

العلم الحسولي هو عبارة عن صورة متواجدة في النفس (ذهنية) من جهة أنَّها مرآة للخارج، أي: أنَّ الصورة الذهنية تكون «ما به ينظر» إلى الخارج وطريق إليه، وليست «ما فيه ينظر». والعلم الحضورى هو عبارة عن إدراك ناشئ من ملاحظتنا الصورة لا من جهتها المرآتية بل من جهتها النفسية، أي: ينظر في نفس الصورة الذهنية بما هي واقعية من الواقعيات في حقل النفس (ما فيه ينظر). فالفارق بين العلم الحسولي والحضورى هو النظرة الاستقلالية والمرآتية، فالصورة الذهنية إذا جعلناها مرآة للخارج فنحن على مستوى العلم الحسولي، وإذا نظرنا إليها بما هي فنحن على مستوى العلم الحضورى. وإذا تبين هذا فنقول: قد ننظر إلى الصور الذهنية بما هي مرآة تعكس أموراً خارجية متعددة (لا أمراً خاصاً) فالإدراك هنا إدراك كلي؛ أي: أنَّ الصورة العلمية تصدق على

كثيرين. وقد ننظر إلى الصورة العلمية بما هي مرآة تعكس أمراً خاصاً، فالإدراك هنا إدراك جزئي؛ أي: أن الصورة العلمية تصدق على أمر واحد فقط. فالسر في كون الإدراك الحسي والخيالي جزئيين هو الارتباط بأمر خاص، ولا علاقة له بالمادة التي تشكل أرضية وعلة معدة للإدراك.

#### ٤ - نظريات في التصورات الكلية:

يعد البحث عن الكليات من أهم البحوث الفلسفية، وفيما يلي بعض النظريات التي تناولت هذا النوع من المفاهيم:

٤-١: نظرية أصالة التسمية (الإسمية): تنكر هذه النظرية وجود الكليات، وتدّعي أن المفاهيم الذهنية عبارة عن أسماء في مقابل مسميات، ولهذا تسمى هذه الطائفة بالإسميين، ومن تبنى هذه النظرية من العلماء وليام آكام وتبعه على ذلك باركلي<sup>(١)</sup>، ويمكن إدراج الوضعية المنطقية تحت هذه الطائفة. وتتمثل خلاصة نظريتهم في أن الألفاظ الدالة على المفاهيم الكلية مثل المشتركات اللفظية الدالة على أمور متعددة نظير مفهوم «حيوان» إنه مثل اسم

(١) جورج باركلي ((رسالة في أصول علم الانسان)): ٧ المقدمة.

«علي» الدال على كثيرين بالاشتراك اللفظي، فالكليات في ضوء هذا التحليل ألفاظ خالية وأسماء بدون مسميات.

٤-٢: نقد ونقض: يعود أصل نظرية الإسميين إلى إنكار التصورات الكلية، وأن الألفاظ الكلية عبارة عن مشتركات لفظية أو في حكم المشتركات اللفظية الدالة على أفراد متعددة، فناسب لفهم هذه النظرية التعرض إلى معنى المشترك اللفظي والمعنوي:

٤-٢-١: المشترك اللفظي: هو عبارة عن لفظ واحد وضع لمعاني متعددة بوضع متعدد، من قبيل: لفظ «عين» الموضوع لمعاني متعددة: مرة للحنفية، مرة للذهب، مرة للبصر، و...

٤-٢-٢: المشترك المعنوي: هو عبارة عن لفظ واحد وضع لمعنى واحد (الجهة المشتركة لأمر متعددة)، نظير: لفظ الإنسان الموضوع لمعنى واحد (حيوان ناطق) ينطبق على أفراد الإنسان الكثيرة.

٤-٢-٣: الفروق بين الاثنين: أ- المشترك اللفظي يحتاج إلى تعدد في الوضع، فيما يحتاج المشترك المعنوي إلى وضع واحد فقط. ب - المشترك المعنوي يقبل الصدق على مصاديق غير متناهية، فيما يصدق المشترك اللفظي فقط على المصاديق التي وضع لها. ج-



المشترك المعنوي معنى واحد عام لا يحتاج في فهمه إلى قرينة خارجية بخلاف المشترك اللفظي الذي له معاني خارجية متعددة، فيستدعي قرينة تعين المعنى المراد منها. فإذا أخذنا لفظ الإنسان أو لفظ الحيوان، نفهم معناه بدون احتياج إلى قرينة تعين المعنى الذي يدل عليه اللفظ، ونطبقه على مصاديق متعددة غير متناهية (محمد فاطمة، علي، حسن، حسين...) كمعاني للفظ «الإنسان» و«الحيوان». والخصوصية الثالثة هي أننا لا نحتاج في حمل الإنسان على أفراده المتعددة إلى تعدد عملية الوضع لاستحالة ذلك عملياً. والحاصل: أن الألفاظ الكلية من قبيل المشتركات المعنوية لا كما تدعي ذلك نظرية الإسمية. ويمكن أن يعترض معترض قائلاً: يمكن للواضع أن يتصور مورداً واحداً في ذهنه ويضع له ولجميع الأفراد المشابهة له لفظاً خاصاً. ومن الواضح أن هذه العملية تحتاج إلى تصور معنى «مشابه»، «أفراد» و«جميع» حتى يقوم بعملية الوضع هذه، والسؤال: كيف وضعت هذه الألفاظ؟ وكيف تقبل الصدق على كثيرين؟ ومن أين جاء هذا اللفظ الجامع المنطبق على أفراد كثيرة؟

٣-٤: شبهة الإسميين: إن الشبهة التي وقع فيها أصحاب أصالة التسمية وجعلتهم ينكرون المفاهيم الكلية أننا حينما ندرك مفهوماً

كلياً ما فهو عبارة عن وجود خاص في ذهننا، وإذا أدركناه مرة أخرى فهو وجود آخر غير الأول، وإذا أدركه شخص آخر فهو وجود ثالث غير الأولين، وبالتالي: كل مفهوم في الذهن عبارة عن مفهوم خاص مشخص يغاير المفاهيم الأخرى المتواجدة في الأذهان الأخرى فكيف يقولون إنَّ المفهوم في الذهن يتصف بالكلية والوحدة ؟

٤-٤: رفع الشبهة: المغالطة التي وقعت فيها هذه المدرسة هي الخلط بين المفهوم والمصداق؛ بيان ذلك: فإننا حينما نقول: إنَّ مفهوم الإنسان مثلاً واحد نقصد بالوحدة هنا الوحدة المفهومية والتعدد الذي نراه هو تعدد على مستوى وجود ومصداق هذا المفهوم؛ فإنَّ لمفهوم الإنسانية وجوداً في ذهني ووجوداً في ذهنك وهذه الكثرة حكم الوجود الخارجي لهذا المفهوم. وعلى هذا: فإنَّ للمفاهيم الذهنية حيثيتين: الأولى: حيثية الحكاية والمرآتية للخارج والثانية: حيثية الوجودية في الذهن وهي عبارة عن مرتبة من مراتب الذهن ووجود خارجي عيني متشخص.

٤-٥: نظرية الجزئي المبهم (هيوم): التصور الكلي عند هيوم عبارة عن تصور جزئي مبهم، أي: أنه عبارة عن تصور جزئي جرد

عن بعض خصوصياته، وبهذه الحالة يصدق على كثيرين، وإذا جرد عن خصوصياته أكثر اتسعت دائرة أفرادها وازدادت سعة انطباقه حتى يصل إلى درجة من الإبهام تؤهله للانطباق على غير صورته الأصلية كالجماد والنبات. وأحسن مثال يعكس هذه النظرية إدراك الشبح فإنه ينطبق لإبهامه على كثيرين، فكما أنه ينطبق على الشجرة فإنه ينطبق أيضاً على الحجر أو الإنسان والحيوان. وترجع هذه النظرية في الأصل إلى نحو الإدراك، فالإدراك الحسي واضح لكونه إدراكاً قوياً، والإدراك الخيالي والعقلي لضعفهما يدركان الأمور إدراكاً مبهماً.

٤-٦: نقد النظرية: وما يرد على نظرية (هيوم) تصورنا للمفاهيم التي لا مصداق لها في الخارج أو التي لا يمكن أن يكون لها مصداق في الواقع كالمستحيلات الذاتية، نظير: مفهوم العدم مفهوم المحال، أو المفهوم الذي ليس له مصداق مادي كمفهوم الله تعالى، الملك، الروح، أو المفاهيم الفلسفية كالعلة والمعلول، أو المفهوم الماهوي كاللون المنطبق على الأبيض والأسود؛ فإنه لا يمكن أن ندعي أن اللون الأبيض ضعيف ومبهم إلى درجة تؤهله لأن ينطبق على الأسود أو الأبيض. ومضافاً إلى الإشكال السابق: يرد

على النظرية إشكال آخر مفاده: أن القضايا الكلية تكون كاذبة مطلقاً، نظير: «كل معلول له علة» أو «كل أربعة زوج»، فإن الأولى تدل على أن كل فرد اتصف بعنوان العلولية فله علة والثانية تدل على أن كل فرد اتصف بعنوان الأربعة فهو زوج وهذا يدل على أننا حكمنا من خلال مفهوم واحد على أفراد متعددة بحكم واحد.

٤-٧: نظرية أفلاطون وهوسرل<sup>(١)</sup>: ترى هذه النظرية أن المفاهيم الكلية لها واقعيات عينية خارج ظرف الزمان والمكان ويتمثل إدراكنا لها في مشاهدة هذه الكليات (المثل الأفلاطونية). ولنظرية أفلاطون قراءات متعددة، تقول بعضها: أن روح الإنسان قبل تعلقها بالبدن شاهدت الحقائق الكلية، وبصفتها مجردة في هذه المرتبة حصل لها اتصال بعالم المثل (الحقائق المجردة) فأدركتها. ولما تعلقت بالبدن المادي وتنزلت قهراً من عالم المجردات إلى عالم المادة نسيت كل ما وعته في تلك المرتبة (عالم المجردات)، ولما احتكت بالجزئيات المادية تذكرت ما أدركته في السابق من كليات مجردة

(١) تعد نظرية الظواهرية من مشتقات نظرية المثل الأفلاطونية.

(المثل)؛ على اعتبار أن هذه المعاني والأشياء الجزئية عبارة عن ظلال وانعكاسات لهذه الحقائق المجردة والأزلية، وإدراك الكليات عبارة عن تذكر لهذه الحقائق المجردة الأزلية<sup>(١)</sup>.

ويرى صدر المتألهين عليه السلام والعلامة الطباطبائي عليه السلام أن الروح لم تكن قديمة بل هي حادثة في هذه النشأة المادية، وتلعب الإدراكات الحسية دور الإعداد لمشاهدة الروح لتلك المجردات من بعيد فالإدراك الكلبي هو عبارة عن هذه المشاهدة من بعيد للحقائق المجردة، بخلاف المشاهدة العرفانية الناتجة عن مقدمات أخرى والتي تمثل مشاهدة وتماس عن قرب<sup>(٢)</sup>.

٤-٨: نقد النظرية: يتبين لنا من التحليل السابق لنظرية أفلاطون أنها تحتضن مسألتين: الأولى: أن الروح (النفس) المجردة الإنسانية موجودة في نشأة (عالم) أعلى وأشرف من النشأة المادية الثانية: أن الإدراك العقلي عبارة عن اتصال الروح (النفس)

(١) فلسفتنا: ٥٨.

(٢) نهاية الحكمة الفصل ١٤: ٢٦٣، تعليقة على نهاية الحكمة ذيل الفصل ١٤ و

٢٠: ٤٨١، الأسفار ٢: ٤٦ - ٨١، ٧: ١٦٩ - ١٧١، ٥: ٥٠٤ - ٥٠٦.

بلحقائق المجردة (المثل الأفلاطونية)، ونحن نركز في نقدنا لنظرية أفلاطون على هاتين الفرضيتين القبليتين.

٤-٨-١: مسألة وجود الروح المجردة قبل البدن: من الحقائق الفلسفية المسلمة بها عند جميع الحكماء أن النفس (الروح) تمثل نتاجاً لحركة تكاملية لجوهر المادة؛ بمعنى: أن النفس بخصوصياتها تسعى نحو الكمال بحركة ذاتية جوهرية وفي نهاية هذا السير تخلص من المادة وقوانينها وتعبّر إلى عالم المجردات مستخدمة البدن في طي مراحل أخرى من الكمال. وأما على مبنى أفلاطون، فكيف نفسر ارتباط المجرد بالمادة؟ وكيف تترك الروح عالم المجردات الذي هو عالم أعلى وأشرف وتنزل إلى عالم أسفل وأخس؟

٤-٨-٢: مسألة الإدراك: أولاً: يرد نفس الإشكال على المسألة الثانية؛ أي: أننا لنا مفاهيم كلية ليس لها حقائق مجردة خارجية (مثل أفلاطونية) كالمفاهيم التي تحكي المستحيلات الذاتية فإنّ المحالات الذاتية (شريك الباري، الدور، التسلسل، و...) لا مصداق خارجي لها حتى يتصل بها العقل لإدراكها. ثانياً: نلاحظ بالوجدان أننا لا نحتاج في إدراكنا للمفاهيم الكلية إلى الاتصال

بالمثل والحقائق المجردة، بل يكفي أن ننطلق من الجزئي الشخص المجردة عن الخصوصيات لكشف المفهوم العام (الكلي)<sup>(١)</sup>.

٩-٤: نظرية أرسطو: تنقل هذه النظرية عن أرسطو وتبناها الفلاسفة الإسلاميين والاتجاه العقلاني في الفكر الغربي، ومفاد النظرية: أن للإنسان قوة إدراك اسمها العقل تتمثل وظيفتها في إدراك المفاهيم الكلية، سواء أكان لهذه المفاهيم مصاديق حسية أم لم يكن لها مصاديق حسية، وتتصف هذه المفاهيم بالكلية في مرتبة خاصة من الذهن (المرتبة العقلية).

#### ٥ - تقسيم العلم الحسولي إلى كلي وجزئي؛

يقسم العلم في الفلسفة والمنطق (في باب البرهان) إلى كلي وجزئي بمعنى آخر، ويكون ملاك التقسيم تغير العلم أو ثباته؛ فإذا كان علمنا بالشئ ثابتاً لا يتغير (قبل وبعد وقوعه) فالعلم كلياً وإذا كان تابعاً للمعلوم فإنه يتغير تبعاً للتغيرات التي تطرأ على المعلوم، فالعلم في هذه الحالة علم جزئي، ويسمى العلم الكلي

(١) الفيزياء والفلسفة، سر جيمز جينز: ٦٢.

العلم ما قبل الكثرة، والعلم الجزئي العلم ما بعد الكثرة<sup>(١)</sup>. ومن موارد العلم المتغير<sup>(٢)</sup> الإدراكات الحسية بصفاتها تتبع المعلوم الخارجي المتغير، فإن علمنا بهذا الجسم المتحرك في هذا المكان غير علمنا به في مكان وزمان آخر. ومرة نعلم بالشئ في حالة ثبات (في الأزمنة الثلاث) وإن كانت القضية شخصية في حد ذاتها، كعلم النجم بحسوف القمر وفقاً لحسابات خاصة لمواقع الكواكب، فإن علمه به بالأزمنة الثلاثة واحد ثابت. والسرّ في ذلك هو العلم بعلة الشئ، فالعلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول، وإن كان في حد ذاته علماً شخصياً كعلمنا بحسوف هذا القمر في هذا الزمان الخاص وفي

(١) تعلية على نهاية الحكمة: ٣٧٢.

(٢) من الواضح: أن هذا التعبير فيه مسامحة؛ فإن العلم لا يتغير بل المعلوم هو الذي يتغير.



هذا الحيز الفلكي الخاص، وعلم الله تعالى بالجزئيات والحوادث علم كلي بهذا المعنى لدى المدرسة المشائية<sup>(١)</sup>.

---

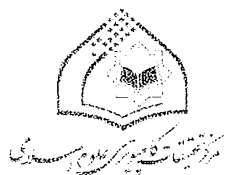
(١) الأسفار ٣: ٤٠٣ - ٤١٧، المباحث المشرقية ١: ٣١٣ - ٣٦٥.

# **المفاهيم الكلية**



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد و علوم اسلامی

## **المعقولات الأوليّة والثانويّة**



يعد تقسيم المعقولات والمفاهيم الكلية إلى أقسامها المتعددة من ابتكارات الفلسفة الإسلامية، وقد أدى هذا التقسيم إلى حل إشكاليات فلسفية كثيرة؛ فإن الخلط بين أنواعها أوقع الفلسفة الغربية في مآزق فلسفية ومعرفية جمة كما نرى ذلك في ما يأتي من المباحث أثناء مناقشة آراء هيوم الفلسفية والمعرفية.

#### ١ - أقسام المعقولات:

المعقولات هي المعاني الكلية، وتنقسم إلى معقولات أولية وإلى معقولات ثانوية، وتنقسم المعقولات الثانوية بدورها إلى ثانوية منطقية تشكل محور البحوث المنطقية وإلى ثانوية فلسفية تشكل محور البحوث الفلسفية.

١-١: المعقولات الأولية: تتمثل المعقولات الأولية في كليات تمثل صور الأشياء في الذهن<sup>(١)</sup>، وتقبل الحمل على الواقعية العينية من قبيل مفهوم «الإنسان» الذي يحمل على محمد، علي، زينب ...

---

(١) مرتضى المطهري، شرح البسوط على المنظومة ٢: ٦٠.

ويقال: «محمد إنسان» و«علي إنسان»، و«زينب إنسان»، أو مفهوم «العالم» لأنه يصدق على المفيد وابن سينا ونيوتن ... ويقال: «المفيد عالم» و«ابن سينا عالم» و«نيوتن عالم». ويدرك الذهن المعقول الأولي بتعاطيه مستقيماً مع واقعته الخارجية، أي: إن الذهن إذا أدرك بواسطة الحواس (باطنية أو ظاهرية) مصداقاً أو مصاديق متعددة، فإنه يصنع لها على الفور مفهوماً كلياً (سيأتي البحث عنه بالتفصيل).

٢-١: المعقولات الثانوية: وتوجد سلسلة أخرى من المعقولات من خصائصها أنها ليست مسبقة بصور حسية أو خيالية، وهي عبارة عن معانٍ كلية ذهنية ليس من نوع المعقولات الأوليّة، بمعنى: أنها ليست صوراً للأعيان الواقعية منعكسة في الذهن، وهي على قسمين: معقولات منطقية تشكل مسائل علم المنطق، ومعقولات فلسفية تشكل مسائل الفلسفة.

١-٢-١: المعقولات الثانوية المنطقية: بعدما يحل المعقول الأولي المرتبة العقلية بعد عبوره المرتبة الحسية والخيالية، تعرضه مواصفات عدة من قبيل الكلية، الجزئية، الجنسية، النوعية وما شابه

ذلك من المفاهيم الأخرى<sup>(١)</sup>. وأحسن من وصفها صدر المتألهين عليه السلام بقوله: «هي ما يكون مطابق الحكم بها هو نحو وجود المعقولات الأولى في الذهن»<sup>(٢)</sup>، فوصف الكلية يعرض الطبيعة الذهنية التي تصدق على كثيرين، فصدقها على كثيرين هو مصحح حمل الكلية عليها نظير «الإنسان كلي». فإنَّ الإنسان في الذهن (المرتبة العقلية) متصف بوصف أنه يصدق على كثيرين، مما يجعله يقبل حمل مفهوم الكلية عليه: الإنسان كلي. فكما أنَّ الطبيعة المتحقق في الخارج تعرضها أوصاف خارجية لا يمكن أن تعرضها وهي في الذهن، كذلك تعرضها أوصاف في الذهن لا يمكن أن تعرضها وهي في الخارج؛ فالإنسان لا يتصف بوصف الكلية في الخارج بل يستحيل ذلك؛ على اعتبار أن الخارج ظرف التشخيص لا ظرف الانطباق على كثيرين. والمعقولات التي تحمل هذه المواصفة هي معقولات ثانوية منطقية مثل: الكلية، النوعية، الجنسية، الفصلية العرضية، و...<sup>(٣)</sup>، ومن الواضح: أنَّ هذه الأوصاف ليست أوصاف

(١) نهاية الحكمة: ٢٥٧.

(٢) الأسفار ١: ٣٣٣، كشف المراد المقصد الأول المسألة الرابعة: ١٠.

(٣) السبزواري، شرح المنظومة، غرر في تعريف المعقول الثاني: ٣٩.



لأشياء خارجية، فإنَّ الطبيعة الإنسانية في ظرف الخارج ليست نوعاً  
وليست كلياً، و...

ونكتشف من خلال هذه المفاهيم الذهنية وما تحمله من  
مواصفات خاصة بالذهن الإنساني هي: أنَّ الذهن يصنع بعدما  
يتخذ معقولاته الأوليّة موضوعاً لفعالية ونشاط خاصين مفاهيم  
جديدة ليست مكتسبة من الواقع الخارجي تنطبق على المعقولات  
الأوليّة (الإنسان نوع)، فمفهوم النوع ينطبق على مفهوم الإنسان  
وعلى مفهوم البقر ومفهوم البياض و... فمفهوم النوع كلي<sup>(١)</sup>.

١-٢-٢: المعقولات الثانوية الفلسفية: يوجد نوع ثالث من  
المعقولات والمفاهيم الكلية ليست من نوع المعقولات الأوليّة التي  
تعكس صور الأشياء الواقعية وترد المرتبة العقلية مروراً بالمرتبة  
الحسية والخيالية، ولا من نوع المعقولات الثانوية المنطقية التي تحكي  
فقط حالات الطبيعة حين تواجدها في الذهن ولا علاقة لها بالخارج  
بل تشكل نوع مفاهيم كلية تحكي وتعكس مواصفات تتصف بها

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد المقصد الأول المسألة السادسة

الطبيعة حال تواجدها في الخارج، فإنها وإن كانت لا تحل العقل مروراً بالمرتبة الحسية والخيالية كما هو شأن المعقولات الأولى لكن ظرف صدقها الخارج مثلها مثل المعقولات الأولى، لكن تختلف عنها في أن الذهن يدركها بعد فعالية ذهنية ومقايسة الأشياء بعضها إلى بعض، بخلاف الأولى فإن الذهن يدركها فوراً بعد إدراكه بالحاسة الباطنية أو الظاهرية عدة أشخاص خارجية. مثلاً: إدراكه لمفهوم العلة ومفهوم المعلول، فإنه ينتزعهما بعد قياسه بين شيئين يتوقف وجود أحدهما على وجود الآخر، وتأمله في هذه العلاقة المتحققة بينهما، فمفهوم العلة: «ما يتوقف في وجوده عليه غيره»، ومفهوم المعلول: «ما يتوقف في وجوده على غيره»، فإذا قسنا وجود النار إلى الحرارة المتوقفة في وجودها على وجود النار، فننتزع مفهوم العلة ونحمله على النار: «النار علة للحرارة»، وننتزع مفهوم المعلول ونحمله على الحرارة: «الحرارة معلولة للنار».

وبدون هذه الفعالية الذهنية (المقايسة وعملية الانتزاع) لا مجال لظهور هذه المفاهيم في سطح الذهن، فإننا لو رأينا مليون مصداق من النار ومليون مصداق من الحرارة ولم نقم بمقايسة بينهم ولم نلاحظ التوقف المتحقق بينهم، لم نحصل أبداً على مفهومي العلة

والمعلول<sup>(١)</sup>. والحاصل: أن هذه المفاهيم الكلية والمعقولات الثانوية الفلسفية وإن كانت ناتجة من أثر تحليل الذهن ولم تأخذ مستقيماً من الخارج، فإنها تصدق وتنطبق على الأشياء الخارجية.

## ٢- حيثية الاشتراك بين المفهومين:

يشترك هذان المفهومان (الثانوية المنطقية والثانوية الفلسفية) في خصوصية أن الذهن ينالها عبر فعالية ونشاط خاصين (مفاهيم تحليلية)، وبالتالي: ليست مأخوذة مستقيماً من الخارج، مع وجود فارق في البين مؤداه أن المفاهيم المنطقية تحكي شؤون الواقعية الذهنية والمفاهيم الفلسفية تحكي شؤون الواقعية الخارجية. فإن مفهوم الوجودية، الضرورة، الامتناع، الإمكان وما شابه ذلك مفاهيم ثانوية فلسفية تحكي مواصفات للواقعية الخارجية؛ بمعنى: أن الواقعية الخارجية تتصف بعنوان الوجودية وبالضرورة وباقي الأوصاف. فإننا إذا قلنا: هذا الشيء ضروري أو الواقعية «س» ضرورية، فإننا نريد أن الشيء الخارجي أو الواقعية الخارجية متصفة

(١) أصول الفلسفة ٢: ٤.

بالضرورة. وإن مفهوم القضية، الموضوع، المحمول، القياس، النوعية الجنسية ... هي مفاهيم منطقية تحكي شؤون الواقعية الذهنية بمعنى: أن الواقعية في الذهن تتصف بعنوان القضية والموضوع وباقي المفاهيم. ومن الواضح: أن هذه الأوصاف لا يمكن الإشارة إليها لا بالحس ولا بالعقل، نعم إنها تقبل الإشارة التبعية؛ بمعنى: أن العقل يشير إليها إشارة عقلية تبعاً للإشارة إلى الواقعية المتصفة بها.

### ٣- الفرق بين المعقولات:

نشير فيما يلي إلى حيثيات الامتياز بين المعقولات:

٣-١: المعقولات الأولية مسبقة بالإدراك الحسي والخيالي فإن لكل معقول أولي صورة حسية وخيالية (يختص هذا بالواقعيات المادية)، بخلاف المعقولات الثانية التي ينالها الذهن بفعالية على مستوى المرتبة العقلية؛ فإن العلية كمعقول ثانوي فلسفي والكلية كمعقول ثانوي منطقي لم يصلا المرتبة العقلية عبر الإدراك الحسي والخيالي، بل حصل عليهما الذهن بنشاط وتحليل محض.

٢-٣: المعقولات الأوليّة (المفاهيم الماهوية) تحكي ماهيات الأشياء وتشخص حدودها الوجودية، بخلاف المفاهيم الثانوية بصفتها لا تقع في «جواب ما هو؟».

٣-٣: المفاهيم الثانوية لا ينالها الذهن إلاّ بفعالية وتحليل ذهني خاصين، وتحكي عن نحو وجود الأشياء؛ فإنّ مفهوم العلة الذي يحمل على النار لا يعكس ماهية النار بل يحكي عن العلة الواقعية التي توجد بينها وبين الحرارة، والمتمثلة في رابطة التأثير والتأثر.

#### ٤ - مقولات كانت؛

قد اتضح أنّ المفاهيم الثانوية تشكّل أساس المعرفة الإنسانية، بحيث لو لم يكن هناك مفاهيم منطقية ومفاهيم فلسفية لما كانت هناك معرفة في الأصل، والسر الذي جعل علماء الغرب لا زالوا يتخبطون في إشكاليات معرفية أساسية إلى الآن هو عدم وصولهم إلى هذا النوع من المفاهيم. ومن رفض من علماء الغرب أن تكون المعقولات الأوليّة أساس المعرفة الوحيد الفيلسوف الألماني كانت، وقد طرح ١٢ معقولات أولية (مفاهيم ماهوية) وبجانبها

مفاهيم استعلائية تشبه المفاهيم الثانوية بقسميها المطروحة في الفلسفة الإسلامية.

## ٥ - الفروق بين مقولات كانت ومقولات أرسطو:

٥-١: المكان والزمان مفهومان ثانويان عند كانت، وهما مفهومان ماهويان عند الفلاسفة الإسلاميين.

٥-٢: المفاهيم الثانوية بقسميها ذهنيان عند كانت، حيث يرى أن للمفهومين قبلية فطرية بمعنى: أن المفهومين موجودان مع وجود الذهن البشري، وبعبارة أخرى: أنهما مفهومان ما قبل التجربة، فيما يرى الفلاسفة الإسلاميين أن المفاهيم الذهنية تساق المفاهيم المنطقية، وأما المفاهيم الفلسفية فهي مفاهيم خارجية (طبعاً) بما هي هي مفاهيم ذهنية، لكن منشأ انتزاعها خارجي).

٥-٣: المفاهيم الثانوية عند كانت مفاهيم فطرية؛ بمعنى: أنها مفاهيم قبل التجربة موجود مع وجود الذهن البشري، ونحصل على المعرفة بالتحام هذه المفاهيم مع المعقولات الأولى حين ورودها الذهن، فيما ترى الفلسفة الإسلامية أن الذهن بدوياً يكون خالياً عن كل معرفة حصولية، ثم بعملية تحليلية انتزاعية ينشأ أنواع

المفاهيم الثانوية تحكي أوصاف الواقعيات الخارجية إن كانت فلسفية أو الواقعيات الذهنية إن كانت منطقية. فالمفاهيم الثانوية في الرؤية الكانتية تختلف اختلافاً أساسياً عن المفاهيم الثانوية في الفلسفة الإسلامية، حيث تشكل لدى كانت قوالب ذهنية قبلية ينصهر فيها المعطى الخارجي في مرتبة الفاهمة لتشكيل المعرفة، فيما ترى الفلسفة الإسلامية أنّ الذهن يصنع بنشاط خاص تلك المفاهيم اتكاءً على المعطى الخارجي، وتتمثل وظيفتها في كشف خصوصيات الواقعيات الخارجية (منشأ انتزاعها).

## ٦ - إشكالية المعرفة والمقولات الثانوية<sup>(١)</sup> :

من الأمور التي لا يمكن التردد فيها أننا نمتلك آلاف المفاهيم والمعاني على مستوى الفاهمة (الذهن)، ولا تشكل هذه المعاني انعكاساً للواقعيات الخارجية؛ فإنّ مفهوم الضرورة ليس ظاهرة خارجية متواجدة بجانب الشجرة والبقرة وما شابه ذلك، وكذلك مفهوم الإمكان فإنه ليس حقيقة خارجية مستقلة كجميع الواقعيات

(١) شرح المبسوط للمنظومة ٢: ٧، و٣: ٣٤.

وبمعنى اصطلاحى: ليست هذه المعاني من قبيل المفاهيم الماهوية. من هنا نعلم ضعف النظرية المادية في المعرفة حيث تتخيل أن المعرفة مجرد انعكاس ساذج للواقعية الخارجية على المادة الرمادية (المخ)، مما جعل الفيلسوف كانت ينجح إلى المثالية مفككاً بين الذهني (الشيء لنا) والخارجي (الشيء في نفسه)<sup>(١)</sup>، وجعل الفيلسوف هيجل يوحد بين الخارجي والذهني معطياً الأصالة للذهن؛ بمعنى: أن هيجل يرى أن الخارج يعمل كما يعمل الذهن فكل ما يجري في الذهن يجري مثله في الخارج. ويمكننا مناقشة - بقليل من التأمل - ما تبناه الفيلسوفان الكبيران؛ وذلك أن ما تبناه كانت يفضي إلى مسألة في غاية الخطورة وهي إفراغ العلم عن محتواه أو مضمونه الأساسي وهو الكاشفية عن الواقع، بمعنى: أن حقيقة العلم تكمن في كشفه للواقع الخارجي، والتفكيك الذي يعزل بين الشيء عندنا (المعلوم بالذات) وبين الشيء في نفسه (المعلوم بالعرض) يسقطنا في وحل المثالية المفرطة. وأما ما تبناه هيجل فضعيف جداً؛ فإن الذهن يدرك الشيء المتحرك ثابتاً في حين أنه

---

(١) التمهيدات كانت: ١٨.



متحرك في الخارج، وأنه يمارس عملية التدليل القياسي في حين أنه لا أثر ولا عين لهذه العملية في الخارج (بل لا يمكن أن تقع في الخارج). وتسقط نظرية هيجل بالإضافة إلى هذا في شبك إشكالية أخرى نترجمها في سؤال مفاده: كيف نصصح أخطاء الذهن البشري؟ باعتبار أن الواقع الخارجي لا يعرف معنى للخطأ بل لا معنى للخطأ في هذه المرتبة، فإذا كان الذهن هو الخارج الذي لا يتصور فيه الخطأ فكيف نوجه خطأ المعرفة؟ ونسأل ثانياً: كيف نكشف الخارج من مفاهيم ذهنية لا مصداق لها في الواقع؛ فإننا إذا شكلنا قياساً من صغرى وكبرى يفضي بنا إلى كشف واقعية جديدة، فكيف تم هذا الأمر، وما هي علته؟ أي: ما هو سر الانتقال من مفاهيم ذهنية محضة إلى واقع خارجي تمثله المفاهيم الأولية.

وهذه الإشكالية هي التي دفعت الفيلسوف هيوم إلى تبني نظرية أصالة الحس في المعرفة التي يمكن صياغتها كالتالي: إن كل مفهوم ذهني لا يمتلك مصداقاً خارجياً فهو محض اختراع ذهني يجب أن يوضع في سلة الموهومات. ومن تصدى لهذه الإشكالية المعرفية العويصة الشهيد المطهري رحمته الله فقد حلها بطريقة جديدة، ولحن ننقل نفس تحليل الإشكالية كما جاء في شرحه المبسوط على المنظومة:

«السبب الأصلي في كون هذه المفاهيم - مع أنها ذهنية محضة - آلات لكشف الواقع، هو: إنه إذا كانت هذه المفاهيم الثانوية (المنطقية) مفردات مستقلة، وليس لها أي ارتباط بالمعقولات الأولية بحيث يكون هناك افتراق تام بينهما بالشكل الذي افترضه الفيلسوف كانت بين المفاهيم القبلية التي يقول بها وبين الأمور الذهنية، فلا يمكن لنا باستعانة هذه المفاهيم كشف الواقع الخارجي. فإذا كانت (المفاهيم الثانوية) مجموعة مفاهيم قبلية في شكل قوالب مهيأة سلفاً، وتتداخل مع المعطيات الحسية لتتكون المعرفة بتفاعلها وامتزاجهما، فإننا نصل إلى نفس المأزق الذي وصل إليه الفيلسوف كانت؛ بمعنى: أنه لا معنى لأن نكشف العالم الخارجي برأس مال (مفاهيم) نصفه (المعطى الحسي) جاء من الخارج ونصفه الثاني (المعاني القبلية عند كانت) جاء من عالم آخر لا ربط له بالخارج مطلقاً.

ولكن أساس المسألة أن المعقولات الثانوية - التي تمثل بالنسبة لنا أدوات المعرفة - عبارة عن شؤونات نفس المعقولات الأولية المتحققة في الذهن، وليست أموراً مستقلة عنها، ومعنى

كونها حالات ذهنية أنه ليست إذا حلت الذهن (المعقولات الأولية) تتغير بل نحو وجودها يختلف ويزداد اتساعاً، وهو الوجود الكلي. ومن ذلك على سبيل المثال: أن الإنسان الخارجي له وجود مادي يمثل نفس ماهية الإنسان، ونفس هذه الماهية (الإنسان) إذا حلت الذهن لها وجود آخر هو الوجود الحسي له سعة وجودية أكثر، ثم بعد ذلك ترد الخيال فيزداد وجودها سعة أكثر من ذي قبل، ثم ترد في النهاية مرتبة العقل فتكون أوسع وجوداً من السابق، فنفس الماهية (الإنسان) ازدادت سعة وجودية، ولا تعني الكلية إلا نفس هذه السعة الوجودية.

فإننا في واقع الأمر إذا لحظنا الإنسان في الذهن بوصف الكلية فإن هذا الوصف يوسع زاوية نظرنا إلى الإنسان فقط وليس بمعنى: أن وصف الكلية عبارة عن عنصر مستقل بجنب الإنسان تحصل بامتزاجهما واختلاطهما المعرفة الإنسانية. فإنه لا يمكن أن تحصل المعرفة من تركيب شيء خارجي مع شيء ذهني لا صلة له أصلاً مع الخارج، بل نفس ما ورد من الخارج يوجد في الذهن بوجود أوسع وأعلى، فوظيفة الذهن تتمثل في ملاحظة هذه

الماهية بلحاظ أوسع. والذهن يمثل مرتبة عالية للنفس (الروح) ومرتبة النفس أو الروح أعلى من مرتبة المادة، وكل ما هو موجود في عالم المادة موجود في مرتبة النفس بنحو أوسع وأعلى، وإذا رأى الذهن ذلك في عالم العقل يراه هو هو لا يرى شيئاً آخر بجواره، بل هو نفسه بشكل أوسع، فالكلية التي يتصف بها مفهوم الإنسان توسع زاوية نظرنا إلى هذه الأشياء.

والمعقولات الثانوية المنطقية كلها من هذا القبيل، حيث إنها تؤثر في كيفية لحاظنا للأشياء، وتبدل نحو لحاظنا بالنسبة إلى الأمور العينية والخارجية، فأول ما نلاحظ الأشياء نلاحظها في مرتبة الحس، ولا نستطيع في هذه المرتبة أن نشكل صغرى أو كبرى القياس، أو تعريفاً، أو جنساً وفصلاً ونوعاً، إذ لا يمكن أن نحصل على أي معنى من هذه المعاني في تلك المرتبة، ولكننا نراها نفسها في مرتبة العقل برؤية أوسع، وعلى هذا المستوى نحصل على المعرفة. وقد توهم كانت أن «الكلية» أو «الجزئية» عنصران فطريان موجودان قبل اتصال الذهن بالخارج، وليس الأمر كذلك فإنه لو لم ترد المعقولات الأولية الذهن لما كان عندنا «الكلية» و«الجزئية»، فوصف

«الكلية» في الأصل عبارة عن سعة وجودية لنفس هذه المعقولات الأولية، فهو (الوصف) ليس إلا المحسوسات الأولية اتسعت وجوداً في الرتبة العقلية، وهذه السعة الوجودية هي نفس الكلية ليس شيئاً آخر. فإذن: إن سائر المعقولات الثانوية المنطقية ترجع إلى نحو وجود المعقولات الأولية في الذهن، وليست معقولات أخرى في عرض المعقولات الأولية تنضاف إليها في الذهن، وبعبارة أخرى: إن نفس هذه الماهيات أو المعقولات الأولية بصفتها متواجدة في ظرف الذهن اكتسبت سلسلة صفات وخصائص تدعى: المعقولات الثانوية المنطقية تتحقق المعرفة بانضمامها إلى المعقولات الأولية.

«ونختلف عن الفيلسوف كانت في أننا لا نقول بالمفاهيم القبلية، بل نعتقد بأنه إذا لم تكن هذه المعقولات الأولية فلم تكن المعقولات الثانوية؛ بل هي التي جعلت الذهن يقدر على صنع هذا النوع من المفاهيم (الثانوية)، ومن هنا نخلص من المأزق [ المأزق المعرفي الذي وقع فيه كانت وهيوم] وإلا في ما تكمن القيمة المعرفية لهذه المفاهيم القبلية سواء وجد العالم في الخارج أم لا يوجد. والذي نقوله نحن: إن ماهية واحدة تعرضها أحكام حين تتحقق في الخارج وتعرضها أحكام أخرى حين تتحقق في الذهن، ولهذا الوجود

الذهني وضع آخر وأحكام أخرى تخصه، وهي أحكام نفس الماهية الخارجية في ظرف الذهن يتم بواسطتها الارتباط بالواقع الخارجي، فالكلية مثلاً وإن كانت متواجدة في ظرف الذهن لا يسعها أن تغادره لكنها مبيّنة حالة الشيء الخارجي، فإذا قلنا: «كل نار تحرق» فتعميمنا هذا يمثل حالة ذهنية ليست موجودة في الخارج، وفي نفس الوقت تشير إلى أن الفرد - المتصف بعنوان النار - يحرق، فالعنوان الذي عرضه العموم عنوان موجود في الخارج، فـ«كل» لا يمكن أن توجد في الخارج لكنها تشير إلى شيء خاص خارجي»<sup>(١)</sup>.

## ٧ - تعاريف ونقدها:

يقول الحكيم السبزواري **تلك** في منظومته مشيراً إلى تعاريف المعقولات الثلاثة:

إن كان الاتصال كالعروض في	عقلك فالمعقول بالثاني صفي
بما عروضه بعقلنا ارتسم	في العين أو فيه اتصافه رسم
فالنطقة الأولى كالمعرف	ثانيهما مصطلح للفلسفي

(١) مرتضى المطهري، شرح مبسوط المنظومة ٢: ٨٤، و٣: ٣٠٦.

وحاصل ما جاء في شرحه **لكل** هذه الأبيات: لنفرض عندنا موضوع ومحمول، والمحمول ثابت لهذا الموضوع، فهنا لنا حالتان: ١- عروض المحمول على الموضوع، ٢- اتصاف الموضوع بالمحمول فنأتي بعد ذلك لنفكك بين المحمول بوصفه عارضاً على الموضوع وبين الموضوع بوصفه متصفاً بالمحمول، ثم نقول: لا يخلو صدق المحمول على الموضوع من ثلاث حالات:

الف: عروض المحمول على الموضوع واتصاف الموضوع بالمحمول يقعان في الخارج، فحينئذٍ لسنا في صدد المعقول الثانوي (الفلسفي أو المنطقي)، بل نحن في صدد المعقول الأولي، فإذا قلنا مثلاً: «علي وليد الكعبة» فالولادة في الكعبة تعرض الموضوع (علي) في الخارج ويتصف بها أيضاً في الخارج لا في الذهن.

ب: عروض المحمول على الموضوع واتصاف الموضوع بالمحمول يقعان في الذهن، فحينئذٍ لسنا في صدد المعقول الثانوي الفلسفي ولا في صدد المعقول الأولي، بل نحن في صدد المعقول الثانوي المنطقي، فإذا قلنا «الإنسان نوع» فإن النوعية بوصفها حقيقة ذهنية تعرض مفهوم الإنسان (أي: الإنسان في رتبة الذهن) لا الإنسان الخارجي.

ج: عروض المحمول على الموضوع في الذهن واتصاف الموضوع بالمحمول في الخارج، وهذه الخاصية يتصف بها المعقول الثانوي الفلسفي فقط، فإذا قلنا: «الإنسان ممكن» فإن الإمكان يعرض الموضوع في الذهن ويتصف الموضوع به (واقعية الإنسان) في الخارج<sup>(١)</sup>.

#### ٨ - النقض على هذا التحليل:

ويمكننا مناقشة هذا التحليل بقولنا: هل التفكيك بين العروض والاتصاف ممكن في ذاته ؟ بمعنى: إذا كان عندنا موضوع ومحمول من قبيل: «علي إمام»، فبين علي وإمام توجد علاقة إذا قسناها إلى «علي» تسمى: اتصاف، وإذا قسناها إلى «إمام» تسمى: عروض، فهما ليسا شيئين في الواقع حتى نأتي ونفكك بينهما ونقول: الاتصاف في الخارج والعروض في الذهن. نعم: إذا كان الأمر مجرد اصطلاح فلا مشاحة في الاصطلاح كما صرح بذلك نفس الحكيم السبزواري رحمته الله في تعليقه على الأسفار<sup>(٢)</sup>.

(١) المنظومة، باب: العروض، تعريف المعقول الثاني: ٣٩.

(٢) شرح المنظومة، باب: العروض، تعريف المعقول الثاني: ٣٩.



## ٩ - المفاهيم الاعتبارية (الأخلاقية والحقوقية)<sup>(١)</sup> :

١٠-١: اصطلاحات المفاهيم الاعتبارية: يوجد لكلمة «اعتبار» عدة معاني يحسن بنا التوجه إليها تجنباً للبس والاشتباه:

١٠-١-١: الاعتباري في مقابل الحقيقي، والمقصود من الحقيقة المعقولات الأولية، أي: الماهيات التي لها وجود خارجي وآثار خارجية، وإذا وجدت بوجود ذهني تفقد تلك الآثار. والاعتباري بهذا المعنى نوع مفاهيم لا تحقق خارجي لها مثل تحقق الماهيات والطبائع، من قبيل: الوحدة، العلية والمعلولية، الوجوب والإمكان «حقيقة الوجود» التي تمثل عين الوجود الخارجي، و«مفهوم العدم» و«المستحيالات الذاتية»، والمفاهيم المنطقية بأسرها. وبعبارة فنية: كل مفهوم ليس له ما يلزاه خارجي وإن كان له منشأ انتزاع واقعي. فالمفاهيم الاعتبارية هي: أ - مفاهيم تمثل عين الواقعية الخارجية، ب - مفاهيم تمثل عين اللاواقعية، ج - مفاهيم تمثل عين الواقعية الذهنية.

---

(١) القضية الأخلاقية أو الحقوقية محمولاتها من قبيل: يجب لا يجب وموضوعاتها من قبيل: العدل والظلم، الأمانة والخيانة...

١٠-١-٢: الاعتباري في مقابل الأصل المستعمل في باب أصالة الوجود واعتبارية الماهية، فمن يتبنى أصالة الوجود يقول: الماهية اعتبارية والوجود أصيل، ومن يتبنى أصالة الماهية يقول: الوجود اعتباري والماهية أصيلة، والمراد بالأصالة هنا هو التحقق بالذات (الحقيقة) والاعتباري التحقق بالعرض (بالجهاز).

١٠-١-٣: الاعتباري بمعنى الجعلي أو الوضعي من قبيل المفاهيم الاجتماعية والحقوقية والسياسية، وهي مفاهيم تابعة لجعل الإنسان يضعها وفق متطلباته الحياتية والمعيشية.

١٠-٢: المفاهيم الأخلاقية والحقوقية<sup>(١)</sup>:

يمكننا دراسة القضايا الأخلاقية والحقوقية من عدة زوايا، وما يهمنا فيما يتعلق بنظرية المعرفة هو السؤال التالي: هل هذه القضايا الأخلاقية والحقوقية من إبداعات الذهن وليست لها علاقة بالواقع مطلقاً؟ أو لها علاقة مع الواقع وتنتزع منه؟ والبحث الثاني:

---

(١) كل قضية أخلاقية متشكلة من موضوع من قبيل: يجب، لا يجب، واجب ممنوع... ومن محمول من قبيل: الظلم والعدل، الأمانة والخيانة...

هل القضايا الأخلاقية والحقوقية قضايا أخبارية تقبل الصدق والكذب والصحة والخطأ؟ أو هي من قبيل الاعتباريات الإنشائية؟ وبالتالي: لا معنى للصدق والكذب في دائرتها؟ وإذا كان يتصور فيها الصدق والكذب، فما هو ملاك صدقها وكذبها؟ وبأي معيار يشخص خطأها وحقيقتها؟

ونتناول هنا البحث الأول ونؤخر البحث الثاني إلى فصل «قيمة المعرفة»، وغير خفي: أن المفاهيم التي تشكل مفردات القضية الأخلاقية أو الحقوقية ليست من نوع المفاهيم الأولية التي لها ما بلزاء عيني وخارجي، فهي اعتبارية بأحد المعاني السابقة، ولا يعنى هذا أنها لا علاقة لها بالحقائق الخارجية وغريبة عنها مطلقاً. ومفاد القضية الأخلاقية أو الحقوقية هو بيان رابطة العلية والمعلولية المتحققة بين الفعل الاختياري والهدف الأخلاقي أو الحقوقي، فكما توجد بين العلة والمعلول «ضرورة بالقياس»<sup>(١)</sup>، وفرض ضرورة

---

(١) هذه واحدة من النظريات المطروحة الآن في الحوزة العلمية في قم المقدسة لتفسير ((ما يجب وما لا يجب الأخلاقيين))، وتوجد نظريات أخرى في

المعلول مستلزم لفرض ضرورة العلة، كذلك يوجد بين أفعال الإنسان الاختيارية (موضوع الأخلاق) وبين النتائج المترتبة عليها ضرورة بالقياس<sup>(١)</sup>؛ على اعتبار أن نتائج الأفعال الاختيارية معلولات للأفعال الاختيارية، والفعل الاختياري يتصف قياساً إلى نتائجه بالضرورة بالقياس. ومقولتا «يجب» و«لا يجب» تعبران عن هذه الضرورة بالقياس<sup>(٢)</sup>؛ فإننا إذا أردنا أن نحقق شيئاً ما كتحضير الماء مثلاً المركب من الأكسجين والهيدروجين، فيجب أن نوفر العنصرين المذكورين حتى يتحقق الماء، فلفظة «يجب» تعبر عن تلك الضرورة (الضرورة بالقياس)، أو المريض بالمرض س يقول له الطبيب: يجب أن تتناول الدواء ص حتى تشفى من المرض س، فلفظة «يجب» إشارة إلى الضرورة بالقياس.

⇨

مقابلها، والنظرية هي للشيخ مصباح اليزدي (حفظه الله). (المعرب)

(١) للبحث أكثر عن المفاهيم المنطقية والفلسفية راجع : شرح المنظومة المبسوط

ج ٢ وج ٣، تعليم الفلسفة ١، اصول الفلسفة ٢ : ٤.

(٢) شرح المنظومة المبسوط ٢ : ١٠١.

ونفس التحليل يصدق على القضايا الأخلاقية؛ فإذا قلنا مثلاً: «يجب أن تصدق في كلامك» فمعنى هذا في واقع الأمر: أننا نريد أن نبين العلاقة الموجودة بين هذا الفعل والهدف الأخلاقي (الكمال النهائي، السعادة الأبدية، أو...)، ومن هنا: إذا سألنا الربّي الأخلاقي: لماذا يجب أن نصدق؟ فسوف يجيبنا بكلام يناسب المعيار الذي تبناه في فلسفة الأخلاق. فبناءً على هذا: إن مفهوم «الوجوب» المستخدم في الحقل الأخلاقي والحقوقي ينتمي إلى فصيلة المفاهيم الثانوية الفلسفية باعتباره يحكي عن الضرورة بالقياس المتحققة بين الفعل (العلة) والهدف الأخلاقي أو الحقوقي (المعلول)، والعلية والضرورة بالقياس من المعقولات الثانوية الفلسفية<sup>(١)</sup>.

والسؤال الذي يفرض نفسه على الذهن: ما هو الفارق بين الوجوب المثار في المسائل الطبيعية والرياضية وبين الوجوب المثار في المسائل الأخلاقية والحقوقية؟ الجواب: الفارق بين الوجوبين يكمن في القيود الخاصة، ففي المفاهيم الطبيعية والرياضية نلاحظ فقط

---

(١) تعلية على نهاية الحكمة للشيخ اليزدي: ٣٩٢.

هذه الضرورة (الضرورة بالقياس)، ولا نراعي قيداً خاصاً، فقولنا: يجب توفير عنصري الأكسجين والهيدروجين لتحقيق الماء إشارة إلى أن هذين العنصرين ضروريان لتحضير الماء. وأما «الوجوب» في الحقل الأخلاقي أو الحقوقي فيتحلى بقيد خاص وهو: تلك الضرورة المعتبرة بين فعل الإنسان الاختياري ونتيجته، وإتيان القيد في الأخلاق أو الحقوق لا يغير معنى الوجوب. فمفهوم «يجب» الأخلاقي والحقوقي يحمل نفس معنى «يجب» المتحقق بين العلة ومعلولها (الضرورة بالقياس)، ويكمن الفارق بينهما في أن الضرورة الأخلاقية تتصور بين عمل الإنسان الاختياري ونتيجته أي: أن الضرورة في الحقل الأخلاقي مقيدة بالفعل الإنساني فقط وفي الفلسفة تتصور بين ظاهرتين طبيعيتين أو تكوينيتين مطلقاً.

من هذا التحليل يتضح خطأ النظرية التي تدعي أن المفاهيم الأخلاقية والحقوقية جعلت على أساس رغبة ومتطلبات الفرد أو الجماعة، وليست هناك أي علاقة بين الحقائق العينية وميول الأشخاص أو الجماعات، ولا تقبل أي تحليل عقلاني ولا تخضع لعملية الاستدلال. والحاصل: «أن هذه المفاهيم وإن كانت مفاهيم

اعتبارية جعلية، لكنها تعكس العلاقات العينية والحقيقية بين فعل الإنسان والنتائج المترتبة عليها»<sup>(١)</sup>.

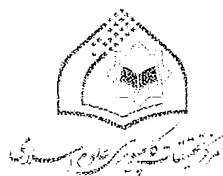
---

(١) نهاية الحكمة، المرحلة الحادية عشر، الفصل العاشر ٢٥٦، تعليم الفلسفة د ١: ١٧٩، ٢٢٧، تعليقة على نهاية الحكمة: ٣٩٠ - ٣٩٣.

# أصالة الجس

نظرية: الوضعية المنطقية





## ١ - المدرسة الوضعية:

يعد العالم الفرنسي «آجست كنت» أول من طرح فكرة الوضعية، وتتمثل الفكرة في أن الشيء الوحيد الذي نعتقده هو الشيء المحصل (الوضعي) والملموس بحيث يقبل الإشارة الحسية وبالتالي: إن المعرفة عند كنت تتمحور فقط حول المعطيات الحسية. وهذا الاتجاه يقع في مقابل كل ما هو معنوي مفهومي أو انتزاعي فحتى المفاهيم الكلية والانتزاعية التجريبية التي ليست ناشئة من المعطى الحسي المباشر مفاهيم غير علمية، بل هي ماورائية فارغة لا معنى لها.

ويرى آجست كنت أن البشرية مرت بثلاث مراحل في طورها الفكري، نعرضها في ما يلي:

١-١: المرحلة الإلهية: كانت البشرية ترجع حوادث الكون إلى علل وأسباب ماورائية، وتوجهها توجيهاً غيبياً.

١-٢: المرحلة الفلسفية: وبعد حقبة من الزمن ظهرت على سطح الكون ظواهر طبيعية لا تقبل التفسير الماورائي، من قبيل:

السيل، الزلزال، وما شابه ذلك، وتعد ضربة قوية لبرهان النظم، مما جعل البشرية تعدل من التفسير الماورائي إلى التفسير الفلسفي حيث حاولت لمس العلل في الجواهر غير الماثية وفي طبيعة الأشياء.

٣-١: المرحلة العلمية: في هذه المرحلة غيرت البشرية ماهية السؤال؛ أي: في عوض أن تسأل عن لما الظاهرة؟ سألت عن كيفية ظهور الظاهرة وعن العلاقات التي تربطها مع باقي الظواهر الأخرى، وهذه هي المرحلة الوضعية صاحبة المقولة المعروفة: « كلما اقترب العلم أكثر تأخر الله أكثر»<sup>(١)</sup>.

وتنكر هذه المدرسة التصورات الكلية والقوة المدركة (العقل) لهذه المفاهيم مطلقاً، حيث أنها ترى أن التجربة الحسية تمثل المنبع الوحيد للمعرفة، ولا تؤمن بالتجربة الباطنية (العلم الحضورى) ولا أقل لا يصدق عليها بأنها علم؛ على اعتبار أن العلم عندها ينطبق فقط على الأمور التي تقبل الإثبات الحسي للآخرين وما عدا هذا فكله عبارة عن علم كاذب.

(١) النظريات الفلسفية للفيزيائيين المعاصرين: ٣٨.

## ٢ - نقد المدرسة الوضعية؛

قد تبين من خلال التحليلات السابقة أن المدرسة الوضعية تمثل أصالة الحس المفرطة، و تعد أخط نظرية فكرية ظهرت في طول تاريخ البشرية، ويرد عليها عدة انتقادات نعرض لبعضها:

٢-١: لا يبقى على ضوء هذه النظرية أساس للمعرفة؛ على اعتبار أننا إذا اختزلنا أصل المعرفة في المعطيات الحسية، ونفينا العلم الحضورى والبديهيات المبنية على العلم الحضورى، فلا يمكن التدليل على أية مسألة نظرية تدليلاً عقلانياً، إذ لا يمكن قبول مسألة نظرية ما لم تبتن على قضايا بديهية. ومن الواضح: إنه إذا نفينا «مبدأ الهوية» و«مبدأ امتناع التناقض»، فلا يتيسر اليقين بأية مسألة علمية أخرى؛ فإن المعرفة الحقيقية هي المعرفة التي تبتي على البديهيات، لا كما تدعيه النظرية الوضعية القائلة بأن المعرفة الحقيقية هي ما تقع مورداً لقبول الآخرين حيث يمكنهم إثباتها بالتجربة الحسية. وسوف نشير في ما يأتي إلى أنه لا يتيسر لنا إثبات العالم الخارجي مع إنكار البديهيات.

٢-٢: المعطيات الحسية الساذجة وإن كانت لا تخطأ لكن القوة الوهمية تحكم على الواقع الخارجي مرتكزة على تلك

المعطيات حكماً جائراً كحكمها بانكسار العصا داخل الماء، والحكم على النجمة بأنها صغيرة و...، ولولا القوة العقلية لما استطاع الإنسان كشف الحق في هذه الموارد (وما أكثرها في العالم) بمجرد ارتكازه على الحواس.

٢-٣: تعد المفاهيم العقلية والفلسفية لدى النظرية الوضعية مفاهيم فارغة لا محتوى لها، وهذا الإدعاء جزافي وباطل؛ لأنه لو كان الأمر كما تدعي النظرية الوضعية لما كان هناك فارق بين هذه المفاهيم والألفاظ المهمة ونفيها وإثباتها سواء؛ فثمة فرق أساسي بين قولنا: «النار علة الحرارة» وعكس هذه القضية: «الحرارة علة النار» حتى لدى النظرية الوضعية، وإذا صدقت بهذا فقد صدقت بمفهوم العلية في الرتبة السابقة (للقاعدة: التصديق فرع التصور).

٢-٤: لا يبقى مجال لأي قانونٍ علمي على ضوء هذه النظرية؛ على اعتبار أن القضايا العلمية قضايا كلية وضرورية، والحس لا يثبت الكلية والضرورة.

٢-٥: القيمة المعرفية للتجربة الحسية تنحصر فقط في المورد الذي تمت فيه التجربة، وأما باقي الموارد فلا يمكن تسرية الحكم

إليها، وببيان آخر: أن التعميم على الموارد الأخرى غير العينية المجربة يستدعي آلية أخرى غير نفس التجربة؛ على اعتبار أن القانون العلمي لا يتحقق ولو بمليون عينية مجربة، وهذا ما يفصل التجربة عن الاستقراء الساذج؛ فإن التجربة تتمثل في استقراء معلل، وهذا التعليل هو الذي يصحح التعميم حتى نحصل على القانون الكلي، ولا يتم هذا إلا بإعانة من العقل. ومضافاً إلى ذلك: ليس من حق الوضعية التكلم في الأمور الخارجة عن حقل التجربة؛ باعتبار أن التجربة تتناول فقط ما يقع تحت الحس وما هو خارج الحس كالله تعالى والنفس لا يحق لها الإفتاء فيه بل يجب عليها أن تسكت ولا تقول شيئاً.

٦-٢: المأزق المهم الذي سدّ الطريق في وجه الوضعية هو مسائل الرياضيات؛ باعتبارها تشكل مسائل عقلية محضة لا مجال فيها للتجربة، وبالتالي: إنها وفق معيارها مسائل فاقدة لأي معنى وخاوية من كل محتوى. فنسأل أصحاب هذه المدرسة: هل تعتقدون بأن قضايا الرياضيات قضايا لا معنى ولا قيمة معرفية لها؟ هل تعتقدون بأن قضايا الرياضيات لا تعكس أية ظاهرة واقعية؟ هل

المباحث التي تطرح حول اللانهاية لا معنى لها؟ هل البحث عن محيط هندسي ذي مائة ضلع لا معنى له بمجرد كونه لا ينال بالحواس؟ وقد انتبه بعضهم إلى هذه الإشكالية، مما جعلته يرجع مسائل الرياضيات إلى المنطق غافلاً أن مسائل المنطق تعالج صور ذهنية (المفاهيم) ولا صلة لها بالخارج، في حين أن الرياضيات (وإن كانت مسائل لا تنالها يد التجربة) مسائل حقل تطبيقها وتجليها هو العالم الخارجي<sup>(١)</sup>.

### ٣ - الوضعية المنطقية وفلسفة تحليل اللغة:

ظهرت مدرسة أخرى في العشرة الثالثة من القرن العشرين (١٩٣٠م) تبنت نفس متبنيات مدرسة آجست كنت، نشطت بالخصوص في أمريكا والمجلترا<sup>(٢)</sup>، تدعى بالوضعية المنطقية وتعتبر مولود طبيعي للتجربة الذي يعتبر الفيلسوف دافيد هيوم مؤسسها الأصلي، وتمثل عبارة هيوم: «ترجع العلوم كلها إلى المعطيات

(١) تعليم الفلسفة ١: ١٨٩ - ١٩٢.

(٢) هناك فروق بين المدرستين ستوضح فيما بعد.

الحسية، وما يمكن لنا معرفته من الواقعيات هي المحسوسات المتمثلة في المعطى الحسي...»<sup>(١)</sup> الأصل الذي تبتنى عليها التجريبية والعبارة كما تلاحظ تمثل أوج التجريبية والأرضية التي بني عليها الفكر الوضعي بكل أشكاله، يقول صاحب كتاب «العلم والدين»: «المنطقية الوضعية هي إحياء لأصالة التجربة المفرطة مع اهتمام بالمنطق الصوري»<sup>(٢)</sup>. وأول ما تشكلت في فينا سنة ١٩٣٦م من طرف فردريك وايزمن وفيكل وردولف كارنب وموريس شليك، وسمت نفسها «حلقة فين».

#### ٤ - نظريات الوضعية المنطقية:

٤-١: وظيفة الفلسفة: تتمثل وظيفة الفلسفة عند الوضعية المنطقية في تحليل اللغة والفكر، وتطهير اللغة من المفاهيم التي لا معنى لها. يقول باربور: «ليست وظيفة الفيلسوف لدى الوضعية المنطقية هي الحكم على مفردات العالم (هذه وظيفة مقتصرة على

(١) العلم والدين، الفصل السادس: ٥١.

(٢) العلم والدين، الفصل التاسع: ٣٧٨.



العلماء)، بل وظيفتها تطهير اللغة والمفاهيم التي تستخدم في العلوم<sup>(١)</sup>، ويصرحون: «الفلسفة لا تخبرنا عن شيء فيما يتصل بالعالم والإنسان، لذا لا يمكن عدّ الفلسفة فرعاً من فروع المعرفة البشرية، ويجب الرجوع إلى العلم لمعرفة العالم والإنسان»<sup>(٢)</sup>.

والفلسفة ليست نظرية من النظريات، بل تعدّ فعالية تتكفل فقط بتوضيح معاني الأسئلة وتحلية معاني الجمل، بل تتمثل وظيفتها في بيان نوع القضايا؛ بمعنى: أن بعض القضايا قضايا علمية، وبعضها قضايا رياضية، وبعضها (قضايا الفلسفة) لا معنى لها (لا كاذبة ولا صادقة)<sup>(٣)</sup>. ونزلت الوضعية المنطقية مقام الفلسفة إلى أسفل سافلين: «ليس للفلسفة من الآن أن تدلي برأيها في ما يتصل بالعالم، بل تسعى فقط إلى كشف تعقيدات الحياة اليومية

---

(١) العلم والدين، الفصل الخامس: ١٥٣، الرسالة المنطقية الفلسفية لويكتشتاين: ٣٠.

(٢) أصول وفلسفة التعليم والتربية، الدكتور شريعتمداري: ٢٢٣.

(٣) اللغة، الحقيقة والمنطق، سير ألفرد جونز آير: ٥٧.

وحل المشكلات العظيمة التي يرغب في حلها الناس»<sup>(١)</sup>، ويقول فيكل: «الفلسفة هي مرض يجب أن يعالج»<sup>(٢)</sup>.

وركزت الوضعية المنطقية في نشاطها على مسألة اللّغة واهتمت بالبنية اللغوية للمحاورات العلمية والفلسفية، ونوع الجمل التي تستخدم في هاذين الحقلين المعرفيين، وما هو المنطق الحاكم على هذه الحوارات ؟ تقول: كل شيء يكمن في اللّغة والكلام، ولا تتمثل وظيفة الفيلسوف في الغوص في باطن الأشياء بغية كشف حقيقتها، بل تتمثل في معرفة ماهية اللّغة وما هي العبارة (الجملة) التي لها معنى والتي لا معنى لها<sup>(٣)</sup>. يقول باربور: «إنّ فلسفة تحليل اللّغة تنفي قليلاً قليلاً كل ما يمت إلى الإستنباط بصلة، وتقتصر وظيفتها على البحث في تجلية وتبيين اللّغات المختلفة وما تقوم به من دور في حياة النّاس»<sup>(٤)</sup>.

(١) كليات الفلسفة: ٤١٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) رسالة المنطقية الفلسفية: ٨٠.

(٤) العلم والدين، الفصل السادس: ١٩٩.

٤-٢: نظرية المعرفة عند الوضعية المنطقية: تنحصر المعرفة في رأي هذه المدرسة في المعطيات الحسية، وكل ما لا يرجع إلى الحس لا قيمة معرفية له، وبالتالي: إن معرفة الظواهر تتم فقط عن طريق التجربة الحسية. نعم: أن الوضعية المنطقية تعتقد أن المفاهيم الذهنية والنظريات العلمية لا تنال بالحس، لكنها عبارة عن خلاصة وعصارة للمعطيات الحسية والتجريبية. يقول باربور: «النظريات العلمية بقول الوضعية المنطقية ليست انعكاس العالم الخارجي، بل هي عملية تلخيص واختزال للمعطيات الحسية»<sup>(١)</sup>، ويقول في مكان آخر: «تعد النظرية العلمية عند الوضعية المنطقية ملخص وعصارة للمعطيات الحسية، أو فهرسة للتجربة أو طريقة مناسبة لتصنيف الأمور الواقعية»<sup>(٢)</sup>.

وفي الحقيقة ترضع الوضعية المنطقية من ثديين: الأول: الظواهرية التي تتمثل في أن كل ما هو موجود يرجع إلى المعطيات الحسية، وأن كل ظاهرة تختزل في المعطى الحسي، وأن كل قضية

---

(١) العلم والدين، الفصل الخامس: ١٥١.

(٢) العلم والدين، الفصل السادس: ١٧١.

علمية يجب أن تخضع إلى التحقيق التجريبي<sup>(١)</sup>. والثاني: الفيزيائية التي تتمثل في أنّ «ما القضايا»<sup>(٢)</sup> هو الذي يرجع إلى «لغة الشيء» فعوض أن نركّز على المعطى الحسي نهتم بلغة الأشياء؛ أي: لا نهتم بالأمور الخارجية بقدر ما نهتم بلغة الأشياء<sup>(٣)</sup>.

٣-٤: نظرية المعنى: تطرح الوضعية المنطقية نظرية في المعنى تفرز بموجبها القضايا العلمية عن القضايا المهمة (التي لا معنى لها)، وتتمثل هذه النظرية في أنّ كل قضية علمية لا تخضع لمبدأ التحقيق لا معنى لها بل تندرج في سلة القضايا المهمة، فوفق هذا الضابط تنحصر القضايا المقبولة لدى هذه المدرسة في:

١-٣-٤: القضايا التركيبية: هي قضايا يمكن التيقن منها بالتجربة الحسية، من قبيل: «الآن الجو ممطر».

٢-٣-٤: القضايا التحليلية: تتمثل في قضايا صدقها مستخلص من معناها، من قبيل: «كل مثلث له ثلاثة أضلاع» أو

(١) نفس المصدر: ١٩٧.

(٢) نفس المصدر: ١٩٧.

(٣) ما الحقيقة: تعريف الشيء بعد تحققه ووجوده بحده التام أو ما شابه.

«كل زوج له زوجة»، فهي سنخ قضايا تكتسب حقانيتها من بنيتها الصورية، ومن خصائصها أنها لا تتحفنا بمعلومات جديدة، بخلاف الوضع في القضايا التركيبية فإنها تتحفنا بعلم جديد، ولا يتم ذلك إلا من خلال التجربة، مثل القضية: الماء يتبخر عند الدرجة المئوية<sup>(١)</sup>. الخلاصة: إن الفارق بين القضية التحليلية والتركيبية أن الأولى لا تفيدنا شيء باعتبار أن المحمول فيها مستل من الموضوع كما في المثال السابق، فإن مفهوم الموضوع (الزوج) ينطوي في داخله على مفهوم المحمول (له زوجة)، فيما تفيدنا الثانية بشيء جديد متحقق في الواقع إذ لا يمكن معرفة «درجة تبخر الماء» إلا من خلال التجربة.

٤-٤: مبدأ التحقيق: والسؤال المطروح: بأي ضابط أو ملاك نميز القضية التركيبية عن القضية التحليلية؟ للإجابة عن هذا السؤال طرحت الوضعية المنطقية «مبدأ التحقيق»؛ ولتوضيح هذه الضابطة اقترح شليك مثلاً مفاده: افرض أن شخصاً ادعى هذه القضية: «العالم ينقبض على وتيرة واحدة» بمعنى: أن العالم يصغر

(١) كليات الفلسفة: ٤٠٨ - ٤١٣، اللغة ن الحقيقة والمنطق، الفصل الخامس.

بدون أن يحدث فيه انقطاع وانشقاق، وتصغر معه وسائل القياس كذلك، بحيث لا يحس هذا التغير ولا يدرك، فهل - والحالة هذه - يمكننا القول أن هذه القضية لها معنى؟ طبعاً: لا؛ لأنه لا يمكننا التحقيق من صدقها أو كذبها بأي مشاهدة أو أية وسيلة من الوسائل»<sup>(١)</sup>.

٤-٥: من الوضعية المنطقية إلى فلسفة تحليل اللغة: اختصت أعمال الوضعية المنطقية - كما ألمحنا إلى ذلك في السابق - في العشرية الرابعة من القرن العشرين (١٩٤٠ م) بتحليل اللغة، لكنها لا تفرق عن المدرسة الأخرى (الفلسفة التحليلية) في الأصول والمباني، بل تعد الفلسفة التحليلية مولود طبيعي للوضعية المنطقية، وإن تفاوتتا في بعض المسائل. يقول باربور في هذا الصدد: «إن فلسفة تحليل اللغة تنفي قليلاً قليلاً كل ما يمت إلى الاستنباط بصلة وتقتصر وظيفتها على تجلية وتبيين اللغات المختلفة وما تقوم به من دور في حياة الناس»<sup>(٢)</sup>.

(١) اللغة، الحقيقة والمنطق: ٢٩، ٣٠، ٦٢.

(٢) العلم والدين: ١٩٩.

والمدريستان تتفقان على المسائل المنطقية واللغة وفي تحليل الجمل المستخدمة في المحاورات العلمية والفلسفية، وتفرقان في أن الوضعية المنطقية تعتقد أن وظيفة الجمل واللغة تتمثل في بيان وترجمة المعطيات الحسية فقط، والقضية التجريبية هي التي تمثل القضية العلمية وغير التجريبية كالقضايا الميتافيزيقية والأخلاقية قضايا لا معنى لها. وهذا بخلاف أصحاب مدرسة تحليل اللغة الذين يرون للغة وظائف متنوعة (لغة علمية، لغة دينية، لغة فنية، لغة أخلاقية...) فإنهم يقولون: لنا لغات متعددة، ولكل لغة حقلها التداولي الخاص تكتسب فيه معنى مشخصاً وفائدة خاصة تفقداهما في حقل تداولي آخر<sup>(١)</sup>.

٤-٦: قضايا الميتافيزيقا والقضايا الأخلاقية: ويتفرع على هذا الأصل الأصل عند الوضعية المنطقية أن القضايا الميتافيزيقية والأخلاقية والدينية بوصفها لا تخضع للتجربة الحسية لا معنى لها بل تعتبر قضايا مهملة (ليست علمية)، وبالتالي: إنها لا تقبل الصدق والكذب. يقول باربور: «وفقاً لقولهم وطبقاً لهذا الأصل (مبدأ التحقيق) أن القضايا المتداولة في الفلسفة والميتافيزيقا

(١) ويتكاشتاين، هارت ناك: ٨٢ - ٨٩.

والأخلاق لا صادقة ولا كاذبة، بل فاقدة للمعنى (قضايا فارغة من كل دلالة حقيقية)، لا معنى محصل لها ولا تبين شيئاً، تبين فقط احساسات وعواطف المتكلم بها»<sup>(١)</sup>. ويقول في مكان آخر من كتابه: «في منشورات (حلقة وين) في العشرية ١٩٣٠: إن لغة الدين لا صادقة ولا كاذبة، بل تعد «فاقدة للمعنى» من ناحية معرفية»<sup>(٢)</sup>.

ويقول آير في نفس الموضوع: «قضايا ما بعد الطبيعة ليست - في الواقع - علماً متكرراً وليست فرضية تجريبية (أي: لا قضايا تحليلية ولا قضايا تركيبية)؛ ولذا كل الأخبار والقضايا الدينية وقضايا الميتافيزيقا والأخلاق لها مجاهاا التداولي الخاص بها. ومن المجالات التداولية مجال لغة الدين، ويقولون: إن لغة الدين لغة خاصة لا يجب أن تقاس بلغة العلم. فلهذا الدين لها مجاهاا التداولي الخاص بها، تكتسب فيه بين جماعة المتدينين معنى خاصاً بها، ولا معنى لها خارج هذه الجماعة. فإذا استخدمنا عبارة ترتبط بمسألة من

(١) العلم والدين، الفصل الخامس: ١٥٣، اللغة، الحقيقة، والمنطق: ٥٠ - ٥١.

(٢) العلم والدين، الفصل التاسع: ٣٧٨ - ٣٧٩، اللغة، الحقيقة والمنطق:



مسائل الدين، فلا نأتي ونحاول كشف معناها بالتجربة، فلها معناها الخاص في الحقل الديني تفقده في الحقل التجريبي بصفتها متواجدة في حقل غير حقلها التداولي»<sup>(١)</sup>.

### ٥ - نقد الوضعية المنطقية:

٥-١: لا يمكن مشايعة الوضعية المنطقية في ما تبنته من نظريات بخاصة اختزالها العلم في المعطيات الحسية؛ وذلك لأنه لا نجد قضية علمية تجريبية متكونة من المعطى الحسي فقط، بل نجد أنها متكونة أيضاً من مفاهيم نظرية أخرى. يقول باربور: «كثير من فلاسفة العلم يخالفون أن يكون العلم تجريبياً محضاً، بل يعتقدون بأن للمفاهيم الذهنية دوراً أساسياً في تقدم العلم؛ ودليلهم على ذلك هو أنه لا يوجد هناك واقع بدون صياغة مفاهيمية»<sup>(٢)</sup>. بل المسألة أعمق من ذلك؛ فإنّ التصور لا يمكن أن يستغني عن الصياغة المفاهيمية، وإلاّ أدركنا الواقع مقطع ومشتت كما توهم

(١) العلم والدين، الفصل التاسع: ٢٨٣.

(٢) العلم والدين، الفصل السادس: ١٧١.

ذلك هيوم، في حين أننا نتصور الواقع قطعة واحدة منسجمة ومنظمة، فليست التجربة الحسية عبارة عن معطى حسي ساذج، بل تحتاج إلى نسق مفاهيمي حتى تدرك كما هي في الواقع الخارجي.

٥-٢: قولكم: «القضية التي لها معنى هي القضية التي تقبل التحقيق التجريبي» تمثل قضية من القضايا فهل يشملها هذا الملاك (التحقيق التجريبي) أو لا؟ والجواب بالقطع هو النفي، فهي وفق هذا التحليل قضية مهمة ولا معنى لها. ومضافاً إلى هذا الإشكال ثمة إشكال آخر هو هل أن التجربة التي تشكل ضابطاً في كون القضية لها معنى تقبل هي بدورها التجربة أو لا؟ إذا أجبتم بالإثبات فيجب أن تلتزمون بصحة التسلسل. وزيادة على ذلك أن الملاك الذي طرحتموه لا ينسجم مع تعريف القضية (ما يحتمل الصدق والكذب)؛ على اعتبار أن احتمال الصدق والكذب متفرع على كون القضية لها معنى متصور في الرتبة السابقة. ومضافاً إلى هذه الإشكالات نقول: إن الانتقال إلى مرتبة إخضاع القضية لعملية التحقيق التجريبي متوقف على الاطمئنان بأن القضية لها معنى، في

حين أنكم تريدون بالتحقيق التجريبي إفضاء المعنى على القضية، وهذا أول الكلام.

٣-٥: تدعي الوضعية المنطقية أن القضايا الميتافيزيقية لا معنى لها من قبيل: «الله موجود» أو «الله ليس موجود»، فإذا كانت القضية الأولى لا معنى لها (وهي كذلك عندهم) فبالضرورة تكون الثانية لها معنى قضاءً لحق اجتماع النقيضين، ومضافاً إلى هذا أن قضية «الله موجود» مساوية عند الإلهيين لـ «واجب الوجود موجود» وهي قضية تحليلية ضرورية، فلها معنى وفقاً للمعيار الذي وضعتموه.

٤-٥: تتخيل الوضعية المنطقية بتقسيمها القضايا إلى «تركيبية وتحليلية» قد حلت جميع المشكلات العلمية والمعرفية، والحال أن القضايا لا تنحصر فقط في القضيتين السابقتين، فإن قضايا الرياضيات لا تندرج لا في التركيبية ولا في التحليلية، ونفس الشيء بالنسبة إلى القضايا الفلسفية، مع أنها تشكل قسماً كبيراً من المعارف البشرية.

٥-٥: ما يدعيه أصحاب فلسفة تحليل اللّغة من أن ملاك اعتبار القضية كونها مفيدة وليس كونها حاكية عن الواقع، يجابه

بإشكاليات كثيرة يأتي التعرّض لها بالتفصيل في بحث «قيمة المعرفة»، منها ما ذكره باربور: «إنّ نظرية أصالة الاستخدام لا يمكن لها أن تقبل نظريتين متناقضتين مفيدتين في نفس الوقت، وهذا بخلاف سيرة العلماء فإنّ الاكتشافات الجديدة حاصل سعيهم الخيث لحل الآراء المتعارضة»<sup>(١)</sup>. في الأصل نحن في مسألة المعرفة دائماً وراء القضايا الحاكية عن الواقع ولسنا وراء استخدام القضايا وهل هي مفيدة أو ليست مفيدة.

---

(١) لمزيد من الاطلاع على الانتقادات الواردة على الوضعية المنطقية راجع : ((العلم والدين)) الفصل الخامس: ٦٩، وكليات فلسفية: ٤١٣.



مرکز تحقیقات و اسناد ملی ایران

## أصالة العقل



سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

بعدما قبلنا نوع خاص من المفاهيم (الكليات) وأذعنّا بوجود قوة إدراك خاصة (العقل) يأتي السؤال التالي: هل الإدراك العقلي مستقل عن الإدراك الحسي أو هو تابع للإدراك الحسي؟ وهذا السؤال يتصور في باب المفاهيم والتصورات وفي باب التصديقات كما يتبين لك في ما يلي:

#### ١ - باب التصورات والمفاهيم؛

ترى نظرية أصالة الحس أنّ وظيفة العقل تقتصر على تجريد وتعميم المعطى الحسي فقط، وليس ثمة معرفة عقلية ليست مسبقة بالإدراك الحسي. وبعبارة ثانية: لا يوجد إدراك أو مفهوم عقلي ليس مأخوذاً من التجربة. وتقع في مقابل هذه النظرية نظرية أخرى ترى أنّ للعقل مفاهيم تختص به ليست ناشئة من التجربة، تمثل نحو وجود الإدراك العقلي، بمعنى: أنّ للعقل مفاهيم فطرية ملازمة له، ولا تحتاج في إدراكها إلى المعطيات الحسية. وقد تبنت هذه النظرية العقلانية الغربية التي تزعمها الفيلسوف ديكارت حيث ادعى أنّ مفهوم «الله»، «النفس»، «الامتداد» و«الشكل» مفاهيم فطرية لا تحتاج إلى الحس في إدراكها العقلي لها، وكذلك يعتقد الفيلسوف



كانت أن للذهن سلسلة مفاهيم قبلية (ما قبل التجربة) من قبيل مفهومي الزمان والمكان و١٢ مقولات أخرى<sup>(١)</sup>، وهي مفاهيم خاصة بالفاهمة لا دخل للحس في تحققها. ويعتقد أفلاطون أن النفس تدرك المفاهيم الكلية قبل تعلقها بالبدن، وتقتصر وظيفة الحواس في النشأة المادية (عالم الغفلة والذهول) على تنبيه النفس حتى تسترجع ما كانت تعلمه في عالم المثل. وترى الفلسفة الإسلامية أن ثمة مفاهيم لا نحصل عليها عن طريق الحس مثل المفاهيم التي تحكي حالات نفسية ندركها بالعلم الحضورى من قبيل: اللذة، الخوف، المحبة، العداوة وما شابه ذلك، والمفاهيم الذهنية كالمفاهيم المنطقية من قبيل: الكلية، النوعية، الجنسية، مفهوم المحمول، مفهوم الموضوع، القضية وما شابه ذلك، والمفاهيم الثانوية الفلسفية من قبيل: العلية والمعلولية، الوجوب، الضرورة، والإمكان... فإنها مفاهيم لا تنال بالحس مباشرة وإن كان للحس شأن المقدمة في

---

(١) المقولات العشر عند كانت هي : ١- الوحدة، ٢- الكثرة، ٣- التماية (الثلاثة من الكميات)، ٤- الاثبات، ٥- النفي، ٦- الحصر، (الثلاثة من الكيفيات)، ٧- الجوهر، ٨- العلة، ٩- التبادل (من النسب)، ١٠- الامكان، ١١- الوجود، ١٢- الضرورة (الجهة).

كشفها من طرف الذهن. وبالتالي: لا يمكن الإدعاء أن مصدر المعرفة الوحيد هو المعطى الحسي، فهذه الدعوى مجرد مجازفة لا يسعفها الدليل والبرهان.

نعم: لا يمكن مشايعة العقلانية الغربية في نظريتهم القائلة أن الإنسان يولد مجهزاً بمجموعة مفاهيم فطرية؛ وآية ذلك: أولاً: إن من يفقد حاسة واحدة لا يدرك ما يسالحنها من المحسوسات، وإذا فقد مجموع الحواس الخمسة لا يدرك معنى للزمان وللمكان (خلاف ما يدعيه كانت)، ولا يدرك معنى للشكل والامتداد كما يدعي ذلك ديكارت<sup>(١)</sup>. ثانياً: إن الوجدان أحسن شاهد على أننا لا نملك مفهوماً بدون تأثير عامل آخر أو حركة تحليلية أو فكرية. ثالثاً: إذا سلمنا وجود المفاهيم الفطرية فلا يمكننا القول أنها تحكي الواقع بل ما يمكننا قوله هو أن مقتضى الفطرة العقلية تكون المسألة كذا ولو خلقنا بكيفية أخرى تكون المسألة بكيفية أخرى.

## ٢ - باب التصديقات؛

البحث الثاني يتمثل في سؤال مفاده: هل التصديقات العقلية دائماً تحتاج إلى «التجربة الحسية»<sup>(٢)</sup> وتتوقف على المعطيات

(١) يأتي نقد نظرية ديكارت في بحث ((قيمة المعرفة)).

(٢) التجريبية تعجز حتى عن إثبات أصل المادة، على اعتبار أن التجريبية

الحسية ؟ أو أنه يمكن للقوة العقلية بدون الاستعانة بالتجربة الحسية إصدار أحكام خاصة بها، وبعبارة ثانية: هل للعقل مدركات تصديقية مستقلة بدون الاحتياج إلى التجربة الحسية ؟ ترى النظرية التجريبية أنه ليس للعقل مدركات بمعزل عن المعطيات الحسية، وكل قضية لا ترجع إلى الحس فلا معنى لها، فيما ترى العقلانية أن للعقل مدركات فطرية تتولد مع تولده أو مدركات ناتجة عن فاعلية خاصة أو مستفادة من العلم الحضوري كما ترى ذلك العقلانية الإسلامية. ومن مصاديق المدركات العقل المستقلة عن المعطى الحسي القضايا التحليلية (القبلية) التي يستخرج محمولها من خلال تحليل موضوعها، والقضايا التركيبية التي لا تحتاج إلى التجربة كالقضايا الرياضية والأخلاق والفلسفة من قبيل: «اجتماع النقيضين محال»، «الدور باطل»، «التسلسل باطل» وغيرها من



تتعاطى مع المعطيات الحسية - كما تدعي هي - والمعطى الحسي لا يعكس إلا أوصاف وظواهر الأشياء لا جواهرها، والمادة التي هي محل جميع هذه الأوصاف لا تقبل الاحساس، بل تلمس فقط بالدليل العقلي، وعجزهم عن إثبات المادة عن طريق التجربة اضطر بعضهم إلى إنكار أصل المادة.

القضايا التي يكفي لإدراك النسبة تصور الموضوع والحمول فقط، والقضايا من نوع الحمل الأولي<sup>(١)</sup> من قبيل «الإنسان بشر»، والقضايا التي منشأها العلم الحضوري من قبيل: الغم ضد الفرح الخوف مؤلم، وما شابه ذلك. ومضافاً إلى أن كل القوانين الكلية والضرورية تحتاج إلى الأصول والقواعد العقلية، فإذا لم نقبل بالأصول العقلية كـ«اجتماع النقيضين محال» فلا يمكن التيقن بأية قضية علمية.

### ٣- نقد التجريبية<sup>(٢)</sup>؛

٣-١: نسأل التجريبية: هل القضية: «كل الأحكام الصحيحة ثابتة بالتجربة» ثابتة بالتجربة أو لا؟ فإن قالت: إنها ثابتة بغير التجربة، فبطلت القضية بنحو الكلية، فقد اعترفت بصحة بعض القضايا غير تجريبية، وإن قالت: تثبت بالتجربة، كان جوابها غير منطقي؛ على اعتبار أن التجربة لا يمكن لها أن تثبت قيمتها المعرفية

---

(١) الحمل الأولي: يمثل المحمول في القضية مرتبة ذات الموضوع، والحمل الشائع : يمثل محمول موضوع القضية في مرتبة مصداقه.

(٢) الأسفار ١: ٩٠، و٣: ٤٤٣.

بنفسها. وبيان آخر: أن التجربة قبل إثبات قيمتها المعرفية يجب أن تكون ثابتة في الرتبة السابقة وإلا لا قيمة لحجة ليست حجة في ذاتها، وهذا بمثابة إثبات أصل الشيء بنفس ذلك الشيء، وهو عين المصادرة على المطلوب.

٢-٣: إن التجربة لا يمكن لها أن تحكم في الموضوعات التي لا يمكن أن يحمل عليها الوجود كالمستحيلات الذاتية، فما يمكن لها أن تقول: أنا لم أجد هذا الشيء، وثمة فرق بين هذا القول والقول: هذا الشيء محال، فإن الفرق بين «ليس موجوداً» و«لا يمكن أن يوجد» كالفرق بين «الحس» و«العقل»<sup>(١)</sup>. فالتجريبية أمام طريقتين: إما أن تؤمن باستحالة بعض الأشياء وإما أن ترفع مفهوم الاستحالة من الذهن، فإذا آمنت باستحالة بعض الأمور فيجب عليها الإذعان

---

(١) وإذا أردنا تجنب المساحة في الكلام، فنقول: إن التجريبية لا يمكن أن تحكم بالنفي على الأشياء ناهيك عن حكمها بـ«(لا يمكن للشيء أن يكون)» الحس يستطيع أن يقول: «(فلان شيء لا أحس به)»، لا أن عدمه لا أحس به؛ لأن هذا الحكم مبني على قياس عقلي خفي: لو كان موجوداً لأحسست به، لكن لم أحس بوجوده، النتيجة: لم يكن موجوداً.

بتصديقات غير تجريبية، وإذا لم تؤمن بأي مستحيل فإنها تؤمن عندئذٍ بجواز اجتماع النقيضين، وبالتالي: إنها رفعت اليد عن أصل التجربة؛ ذلك لأن كل قانون ثابت بالتجربة يحتمل تحقق نقيضه في كل لحظة مما يعني عدم يقينية القانون الأول، هذا يفضي إلى عدم تطور العلوم والمجتمعات.

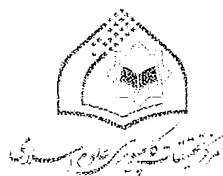
٣-٣: تمثل العلية والمعلولية وفروعها أصولاً كلية لا يمكن لعلم من العلوم أن يستغني عنها، لأن أساس سعي العلوم هو كشف رابطة العلية والمعلولية بين الظواهر والأشياء<sup>(١)</sup>. فإن العالم الذي يستخدم التجربة لكشف جرثومة أو دواء مرض ما، فإنه في الواقع يسعى لكشف علة وسبب ذلك المرض، فإنه (العالم المحرب) يؤمن قبل وروده المختبر وتعاطيه التجربة العلمية بأن لكل ظاهرة علة مخفية وراءها، فإن نيوتن ببركة هذا القانون الفلسفي اكتشف قانون الجاذبية وبدونه لا يمكن له الوصول إلى هذا الاكتشاف العظيم. وأما دراسة وتحليل قانون العلية فهو خارج عن حقل العلم

(١) الشفاء أول قسم الالهيات.

التجريبي، ولا يمكن إثباته بواسطة التجربة الحسية، نعم التجربة  
تستطيع درك التعاقب بين ظاهرتين لكنها لا يمكنها إدراك الضرورة  
والعلية بين الظاهرتين.

## **أدوات المعرفة**





## ١ - النظرية الغربية والإسلامية:

يتناول هذا الفصل الأدوات التي يوظفها الإنسان في عملية الحفر المعرفي، فإنَّ الإنسان قد جهَّز بوسائل عدة تؤهله للوصول إلى معرفة حقائق الوجود والواقع الخارجي. وبعدما أبطلنا نظرية أفلاطون وديكارت، وأثبتنا أنَّ الإنسان يولد خالياً من كل علم حصولي، وبينَّا أنَّه يتعلَّى باستعداد للتعلم، نطرح السؤال التالي: بأيِّ أدوات يحصل الإنسان على المعرفة ؟ يوجد فيما يتصل بهذا الموضوع اتجاهان: الاتجاه الأول أحادي الأداة والاتجاه، والثاني تعددي الأداة، ويقسم الاتجاه الأول بدوره إلى ثلاث فرق: الحسيون، الإشرافيون والعقليون، والحسيون هم الفرقة الوحيدة التي تتكئ على الحس وتهمل باقي الأدوات، ويعتمد العقليون على العقل فقط في كسب المعرفة، فيما يركن الإشرافيون إلى الكشف والإلهام (الإشراق) كوسيلة لنيل المعرفة ويعتقدون أنَّه بإمكاننا عن طريق تهذيب النفس وتركيتها الوصول إلى الحقيقة، ونجد هذا المسلك عند

الفيلسوف الفرنسي برجسون وشريحة كبيرة من الفلاسفة الإسلاميين.

## ٢ - الحواس والمعرفة:

غير خفي أن حواس الإنسان تشكل أداة من أدوات المعرفة، بحيث يمكن للإنسان أن يدرك إدراكاً جزئياً سلسلة من المحسوسات متعلقة بتلك الأدوات، ويمكنه أن يترقى من خلالها إلى الإدراك العقلي أيضاً. وبالتالي: كل من يفقد أداة واحدة من أدوات الحس لا ينال الصورة الحسية المسالمة لها، وبالنتيجة لا ينال الصورة العقلية المترتبة عليها. فمن يفقد إلى أداة البصر مثلاً لا يستطيع إدراك الألوان والصورة العقلية لها، وهذا تفسير للمقولة المشهورة: «من فقد حساً فقد علماً»<sup>(١)</sup>. والوحيد الذي عارض هذه النظرية الحكيم أفلاطون حيث ادعى أن المحسوسات عبارة عن ظواهر وليست حقائق، وفانية دائرة ليست أصيلة باقية، والعلم يتعلق بالمعقولات فقط بوصفها كلية غير زائلة<sup>(٢)</sup>. وترى الفلسفة الإسلامية أن

(١) البرهان من كتاب الشفاء: ١٥٨، الاسفار ٩: ١٢٦.

(٢) الميتافيزيقا بول فولكيه: ١٩٣، أصول الفلسفة المقالة الخامسة: ٤.

الحواس لها قيمة معرفية استلهاماً من القرآن الكريم: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(١)</sup>، ولكنها حصرت المعرفة الحسية في الموارد التي تقبل الحس فقط من قبيل: الإنسان، الحجر الشجر... ولا تشمل جميع التصورات؛ على اعتبار أن الذهن الإنساني يمتلك سلسلة تصورات لا تمرّ على الحس والخيال كالمفاهيم المنطقية والفلسفية وما شابه ذلك، بل يكتسبها عن طريق فعالية عقلية خاصة بعد إدراكه المعطيات الحسية، وإلا فالذهن يمثل - في واقعه - ظرفاً خالياً عن كل معطى معرفي بل يمتلك فقط الاستعداد لقبول المعرفة<sup>(٢)</sup>.

### ٣ - محدودية المعرفة الحسية؛

٣-١: تتحقق المعرفة الحسية عن طريق قنوات خاصة تتمثل في الحواس الظاهرية من مثل السمع، البصر، الشامة، واللامسة

(١) النحل: ٧٨.

(٢) أصول الفلسفة المقالة الخامسة: ٥ - ٦.

وهي عبارة عن معرفة سطحية لا يتميز بها الإنسان عن باقي أنواع الحيوانات، بل إنَّ بعض الحيوانات قواها الحسية أقوى من قوى الإنسان. وهي (المعرفة الحسية) تتعاطى فقط مع ظواهر الأشياء ولا تغوص في بواطن الأمور، بل تدرك فقط الكيفيات والأشكال الخارجية من قبيل: اللون، الطعم، الصوت والليونة ... ومن هنا: ندرك أنَّ للإنسان أداة أخرى غير الحس يوظفها لنيل المعرفة الباطنية باعتباره يدرك بواطن الأمور مثل قانون العلية والمعلولية وما شابه ذلك من المفاهيم العامة.

٢-٣: من خصوصيات المعرفة الحسية أنَّها تدرك الأشياء بشكل جزئي، بعبارة ثانية: إنَّ الحواس ترتبط بفرد خاص ولا شأن لها بالمفاهيم الكلية والعموم، فإنَّها تدرك اللون الخاص لا المفهوم الكلي للون، وهذه الخاصية نجدها عند الحيوانات والصبيان كذلك فلا معنى للمفاهيم الكلية عندهم<sup>(١)</sup>.

٣-٣: من خصوصياتها كذلك أنَّها معرفة وقتية تختص بزمان الحال ولا علاقة لها بالماضي والمستقبل، فالحواس تستطيع أن تدرك

---

(١) الاشارات والتنبيهات ٢: ٣٢٤.

فقط الموجودات الفعلية، ولكي ندرك الأمور الماضية والمستقبلية نحتاج إلى أدوات معرفية أخرى غير أدوات الحس.

٣-٤: من خصوصيات المعرفة الحسية أنها معرفة مكانية محدودة بمنطقة خاصة، فتدرك فقط الأمور المتواجدة في مكان خاص، ولا يمكن أن تمتد معرفتها إلى الأماكن الأخرى؛ فإذا أدركنا مدينة قم المقدسة بالإدراك الحسي فلا يمكن أن ندرك باريس أو مدينة أخرى خارج حدود مدينة قم المقدسة، فمعرفة المدن الأخرى يستدعي أدوات أخرى غير الحواس.

٣-٥: من الأمور التي تجعل من المعرفة الحسية معرفة محدودة الشرائط البدنية (المادية)، فإن المعرفة الحسية تقع تحت سيطرة وتأثير الشرائط البدنية والشرائط النفسانية؛ فإن الإنسان المبتلى بمرض ما لا يدرك طعم الغذاء وحين الغضب لا يحس بالألم و...<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - القوة العاقلة:

اتضح مما سبق أن المعرفة الحسية بوصفها معرفة محدودة (شخصية) وسطحية (ظاهرية) لا تكفي لوحدها لنيل المعرفة الكلية

(١) شرح المنظومة المبسوط ٢: ٢٩٦.

التامة العميقة، فنحتاج إلى أداة أخرى أوسع وأشمل من الحواس، وتمثل هذه الأداة في «القوة العاقلة» يمكننا بواسطتها الوصول إلى الإدراكات الكلية والعامة والغوص في باطن الأشياء. وتمتاز القوة العاقلة عن الحواس بوظائف ومواصفات متعددة؛ فإنها تستطيع أن تحفظ الصور الحسية، وأن تتذكر، وتقدر على التجريد والتعميم، والتجزئة والتركيب، والحكم والاستدلال وغيرها... كما سوف يأتي بيانه في مطاوي البحث.

#### ٤-١: خصوصيات المعرفة العقلية:

٤-١-١: الظاهر والباطن: من خصوصيات المعرفة العقلية أنها يمكنها النفوذ من ظواهر الأشياء إلى باطنها (من الفنون إلى النوم على حد قول (كانت)، فإن القوة العاقلة تدرك من التوالي الساذج بين المحسوسات رابطة العلية والمعلولية المتحققة بينها، ومن هذه الجهة رفضت التجريبية قانون العلية والمعلولية. وتدرك المادة التي هي عبارة عن موجود جوهري بنفوذها إلى قلب المحسوس؛ على اعتبار أن الحواس لا تدرك إلا اللون والرطوبة والحرارة والشكل وما شابه ذلك التي تمثل عوارض وحالات لجوهر المادة، ولا تنفذ إلى

عمق المحسوس بل ليس في قدرتها ذلك ولا من وظائفها. ومن نماذج ما يدركه العقل الشعور الباطني (الذي يقول به فرويد) يقع في مقابل الشعور الظاهري (مثل الخوف، الحب، اللذة) الذي يتساوى في إدراكه الجميع، وهذه حقيقة أشار إليها القرآن في مواطن عدة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾<sup>(١)</sup> وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>(٢)</sup>، ويقول الإمام علي عليه السلام: «إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى لا يبصر مما ورائها شيئاً والبصير ينفذها بصره ويعلم إن الدار ما ورائها»<sup>(٣)</sup>. وهذا السنخ من المعرفة (الانتقال من الظاهر إلى الباطن) يسميه القرآن الكريم «معرفة الآية»، فالمعرفة الحسية بالآية وآثارها تؤهل الذهن لمعرفة ما وراء الآية (ذو الآية)، وبالتالي: إنه يمكن من معرفة الطبيعة الانتقال إلى ما بعد الطبيعة (الذي يعد برهان النظم أشهر نماذج

(١) الروم: ٨

(٢) آل عمران: ٩٠.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٧: ٢٨٥.



هذا الانتقال)، وهذا ما يشير إليه فليسين شاله في كتابه «ما بعد الطبيعة»: «أن المعرفة العلمية والعميقة تكميل للمعرفة السطحية والمعرفة العلمية حاصلة في النتيجة من كمال المعرفة الحسية»<sup>(١)</sup>.

٤-١-٢: التحليل والتركيب: من خصوصيات «المعرفة العقلية» قوة تحليل وتركيب معلوماتها الأمر الذي يزيد في الذخيرة المفاهيمية والمعلوماتية للذهن، وهذه الآلية تمثل حقيقة الفكر المنطقي والمنهجي، فمرة ينال الذهن من خارج معطيات بسيطة تسمى «مبادئ تصورية أو تصديقية» ثم بفاعلية خاصة ونشاط عقلي محض يركب منها مفاهيم جديدة ذهنية، ومرة ينال معطيات مركبة ثم يقوم بتحليلها إلى عناصر بسيطة أولية، من ذلك على سبيل المثال: ينال الذهن بدواً صورة الجسم والشكل واللون، ثم يقوم بفصل الكمية عن الكيفية وباقي الأعراض الأخرى ويتصورها كلها مفصولة عن بعضها البعض، ومرة ينال التصورات البسيطة من قبيل: الجبل والذهب، ثم يركب صورة جديدة: جبل من ذهب وقد يتصور مفاهيم متعددة ثم يركب مفهوماً جديداً مثل تصوره لمفهوم الوجود ومفهوم الوجوب ثم يركب مفهوم «واجب

(١) الميتافيزيقا: ٢٣ - ٢٨.

الوجود». ومن المصاديق الجيدة للتحليل والتركيب ما نراه في علم الفلسفة من تحليل الواقعية المحدودة الموجودة، حيث يدرك الذهن ماهية من الماهية (الإنسان مثلاً) فيقول: ماهية الإنسان تقررت أي: لماهية الإنسان مرتبة نفس أمرية تتمثل في مرتبة ذاتها (هي حيوان ناطق)، ثم امكنت أي أن ماهية الإنسان حين قياسها إلى الوجود والعدم لمجد لا الوجود مترجح على العدم ولا العدم مترجح على الوجود، ثم احتاجت أي أنها احتاجت في تلبسها بالوجود إلى علة فاعلة (موجد)، ثم أوجبت أي أن العلة الفاعلية قهرت العدم ودفعته عن ساحة الماهية، ثم وجبت أي أن العدم انتفى مطلقاً بحيث لم يبق له حض من الماهية فتعينت ضرورة الوجود، ثم أوجدت أي أوجدتها وأفاضتها العلة، ثم وجدت أي: تحققت في الواقع الخارجي، فحدثت أي خرجت من العدم إلى الوجود. فإنَّ العقل هنا وصل عن طريق التحليل إلى مراتب سبعة نفس أمرية للماهية، وهذا ينبى عن أن للعقل قوة عجيبة ومحيّرة تمكنه من انتزاع مفاهيم متعددة من واقعية واحدة<sup>(١)</sup>.

(١) شرح المنظومة المبسوط ٢: ٤٠٩ - ٤١٠.

٤-١-٣: التجريد والانتزاع: من خصوصيات المعرفة العقلية قوة التجريد والانتزاع، فللعقل قدرة على تجريد الماهيات بعد إدراك عدة صور جزئية من الصفات المختصة لنيل الجهات المشتركة، وفي النهاية ينتزع معنى كلياً من جهة الاشتراك ويحمله عليها (الجزئيات)، وبتعبير صدر المتألهين: «الصورة الجزئية تهيم النفس لخلق الصورة الكلية»<sup>(١)</sup>. ولها قوة نيل وإدراك الصرف (الخالص) من كل شيء، أي: أن العقل يمكنه إدراك الماهية الخاصة غير المخلوطة بشيء خارج ذاتها، وهذه الفعالية ليست من شأن القوة الحسية أو الخيالية باعتبار أن الصرف من كل شيء غير موجود في الخارج، لأن الطبيعة الخارجية دائماً توجد مخلوطة ومشوبة بمشخصات تعرضها في الخارج. فإن الإنسان في الخارج دائماً محفوف بمشخصات عارضة عليه مثل: الطول، العرض، اللون، الحجم الشكل، وما شابه ذلك، فالعقل يستطيع أن يجرد ماهية الإنسان ويعقلها منفكة عن هذه الأمور كلها وإن كانت لا تنفك عن بعضها في الخارج.

---

(١) تعليقة على إلهيات الشفاء: ٢١٩.

٤-١-٤: التعميم والكلية: وتمتاز المعرفة العقلية بقوة التعميم بحيث يمكنها الانتقال من الإدراكات الجزئية إلى الإدراكات الكلية فإنّ ما في متناول التجربة هي معرفة الجزئيات، وأمّا كشف القانون الكلي من الموارد الجزئية فمختص بالمعرفة العقلية؛ على اعتبار أنّه لا يمكن إجراء التجربة والفحص في جميع المفردات الجزئية، مثلاً: إذا جربنا تبخر الماء عند ١٠٠٪ فلا يمكن لنا تسرية الحكم إلى العينات الأخرى للماء إلّا بملاك، وبعد كشف الملاك (الذي هو وظيفة العقل المحض) يقدر المجرب أنّ يعمم قائلاً: «كل ماء يتبخر في ١٠٠٪» وبالتالي: يصح تسرية هذا الحكم إلى كل عينية ينطبق عليها عنوان الماء. وهذا التعميم في الأمور المجربة يخضع بقول الشيخ الرئيس ابن سينا والمحقق الطوسي إلى قياس خفي هو: «حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد»، فإنّ العقل يحكم بأنّه من المحال أن يكون لفرد يشترك مع فرد آخر في الماهية وفي جميع الخصوصيات وصف لا يكون للفرد الآخر؛ وإلّا يلزم «الترجّح بلا مرجّح»<sup>(١)</sup>.

(١) تعلّيق على نهاية الحكمة، الشيخ اليزدي: ٣٨٢.

٤-٢: كيفية الانتقال من المعرفة الجزئية إلى المعرفة الكلية:

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا هو كيف ينتقل الذهن (القوة العاقلة) من الإدراكات الجزئية إلى الإدراكات الكلية؟ وبعبارة ثانية: كيف يحصل الذهن على صورة كلية من صورة حسية؟ أو كيف يتم الانتقال من إدراك فردٍ إلى إدراك عموم الأفراد؟ طرحت نظريات متعددة للإجابة على هذا السؤال نعرضها تباعاً.

٤-٢-١: نظرية الحسيين: تتمثل هذه النظرية في أن الصورة الكلية هي عبارة عن نفس الصورة الحسية مبهمه، والصورة الحسية هي نفس الصورة الكلية خالية عن الإبهام. ويمثلون لذلك بسكة النقود فإنها في مرتبة الحس واضحة غير مبهمه وفي مرتبة العقل فاقدة لمشخصاتها لا يعرف الزمان الذي ضربت فيه. والجزئي بصفته صورة واضحة غير مبهمه يمتلك قيمة معرفية، والكلي بصفته مبهماً يفتقد للقيمة المعرفية فإنه ليس فقط لم يصف شيئاً للجزئي بل قلل من قيمته. وهذه النظرية لها جذور في فكر ابن سينا والمحقق الطوسي حيث ذهبوا إلى أن النفس تدرك الكلي إذا جردت الأفراد من مشخصاتها حيث يتعاقب الفرد بعد الفرد على الذهن ثم يتم إدراك المفهوم الكلي (الإنسان). وترجع النظرية إلى أرسطو أثارها

في كتابه «النفس»<sup>(١)</sup> ثم تبناها المعلم الثاني الفارابي في كتابه «فصوص الحكم»<sup>(٢)</sup>، لكن الشيخ الرئيس فصل النظرية أكثر في كتابه النفس «الإشارات والتنبيهات»<sup>(٣)</sup> وفي كتاب «النجاة»<sup>(٤)</sup>.

٤-٢-٢: نظرية التعالي: تتمثل نظرية صدر المتألهين **نظراً** في أن المعرفة عبارة عن ظاهرة متعالية ومتصاعدة؛ بمعنى: أن الجزئي الملفوف في مشخصاته لا تنزل قيمته المعرفية بل يتكامل ويتعالى في قيمته المعرفية، فالمعرفة الكلية هي نفسها المعرفة الجزئية متعالية مشتدة، وما توهم أصحاب نظرية الجزئي المبهمة عبارة عن جزئي مردد الأمر الذي يجعلنا لا نعرف بالضبط مصداقه الحقيقي، في حين أن الكلي هو نفس الجزئي في حالة تصاعد وتكامل يكتسب في هذه المرتبة صفة الجامعة، أي: يكون في هذه المرتبة جميع الأفراد. فمثلاً: الإنسان الكلي في ذهنك في عين وحدته يكتسب حالة تجعله يحتضن

(١) النفس: ٢٠١ - ٢١٥.

(٢) فصوص الحكم الفصل ٤٧: ٣١٢.

(٣) الإشارات والتنبيهات ٢ النمط الثالث، الفصل الثامن: ٣٣٣.

(٤) النجاة: ٣٤٥ - ٣٤٩.

أفراداً غير متناهية، وهذا غير معنى كون الإنسان حقيقة مبهمة مرددة بين زيد وعمرو وخالد... فالإنسان يكتسب تبعاً لتعالى النفس حالة متعالية يحتضن جميع الأفراد، وهذه الحالة من معجزات ذهن الإنسان.

وصدر المتألمين **تلايرد** نظرية الجزئي المبهم حين تعرضه لنظرية التجريد في كتابه الشريف الأسفار<sup>(١)</sup> والتعليقة الرشيدة التي كتبها على «إلهيات الشفاء»<sup>(٢)</sup>: ليس الصورة الخيالية هي نفس الصور الحسية متصرف فيها ببعض التغيرات، والصورة العقلية هي نفس الصورة الخيالية متصرفة فيه ببعض التغيرات، بل إذا قابل حسنا الواقع العيني أبدعت النفس الصورة الحسية في عالم الحس. ولا يعني هذا أن الخارج العيني تغير حين مجيئه إلى ذهننا وحصل بهذا الشكل، بل الخارج في محله والنفس أبدعت حين احتكاكها بالخارج صورة مماثلة في عالم الحس. وإذا واجهت القوة الخيالية الصورة الحسية المبدعة أبدعت صورة خيالية متناسبة مع

---

(١) الأسفار ١: ٣٦٤.

(٢) الأسفار ١: ٣٦٩، تعليقة على الشفاء: ٢١٩، المسائل القدسية: ٥٨.

مرتبة الخيال مع بقاء الصورة الحسية في مرتبتها، وكذلك إذا واجهت القوة العقلية الصورة الخيالية أبدعت صورة عقلية مناسبة لعالم العقل مع بقاء الصورة الخيالية في مرتبتها. فالعلاقة بين القوة العقلية والإدراك الخيالي هي نفس العلاقة بين القوة الخيالية والإدراك الحسي، وهي نفسها التي بين القوة الحسية مع الواقع العيني.

وبعبارة أخرى: إن القوة الحسية في تعاطيها مع الواقع الخارجي تبدع صورة متعالية لهذا الواقع تتناسب مع مرتبة الحس وبنفس الشكل تبدع القوة الخيالية حين تعاطيها مع الصورة الحسية صورة متعالية تتناسب مع عالم الخيال، وهكذا القوة العقلية تبدع حين تعاطيها مع الصورة الخيالية صورة عقلية متعالية تتناسب مع المرتبة العقلية للذهن. فهذه المراتب مع تنوعها لا تترك محلها وتصعد إلى مرتبة أعلى منها، بل تبقى في مرتبتها ولا تنحاز عنها وتحدث صورة أرقى منها في مرتبة تناسبها من مراتب الذهن. هذه خلاصة لنظرية التعالي التي ابتكرها الفيلسوف الكبير صدر المتألهين كما هي مطروحة في مدرسة الحكمة المتعالية التي أسسها هو رضوان الله عليه.



٥ - القلب: يعد القلب في المنظومة المعرفية الإسلامية أداة من أدوات المعرفة كما نلمح ذلك في آيات مباركة كثيرة الدالة على أن القلب يستطيع نتيجة للتزكية والتطهير من الأوساخ المعنوية أن يلمس حقائق ما فوق العقل كما استطاع العقل أن ينال الحقائق ما فوق الحس.

٥-١: معنى القلب: يطلق العقل ويراد به العضو الصنوبري الواقع في شمال الصدر، وهو عبارة عن عضو مادي، وهو بهذا المعنى لا يشكل أداة للمعرفة باعتبار أن المادة لا تدرك نفسها ناهيك عن إدراك غيرها. ويطلق ويراد به العقل كما نلمح ذلك في تفسير الإمام الكاظم عليه السلام للقلب في الآية الشريفة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾<sup>(١)</sup> بالعقل<sup>(٢)</sup>. ويطلق ويراد به مركز العواطف والاحساسات والحالات النفسانية، وهذا المعنى يعادل معنى الفؤاد المستعمل في لسان القرآن الكريم.

٥-٢: نظريات في القلب: رفض فلاسفة المشاء والمتكلمون أن يكون القلب مصدراً أو أداة للمعرفة وعدوا ما يدعيه العرفاء في

(١) ق: ٧.

(٢) أصول الكافي ١: ١٨.

الحقل المعرفي أموراً خطابية شعرية، وحصروا مصادر المعرفة في المعطيات الحسية والتأملات العقلية، فيما يرى العرفاء أنَّ هذه الأدوات وإن كانت تشكل مصادر للمعرفة لكنها ناقصة وضعيفة تتعاطى مع الواقعيات على مستوى المفاهيم الحسولية، ويطرحون القلب كأداة معرفية تفوق الحس والعقل في كشف الواقع . لكننا حين الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة نجد الحثَّ على تزكية النفس وتطهير الباطن لنيل المعارف التي لا يمكن للحس أو العقل أن ينالها، ومن هنا: فصل فلاسفة الإسلام بين حدود المعرفة وأدركوا أنه لا يمكن للحس أن يتدخل في الحقل العقلي ولا العقل يمكن له أن يتدخل في الحقل القلبي. يقول كانت فيما يتصل بالمعرفة القلبية: «أمران يثيران إعجاب الإنسان: الأول: السماء المملوءة بالنجوم الواقعة فوق رؤوسنا، والثاني: الوجدان والضمير الواقع في أعماقنا»<sup>(١)</sup>.

(١) الإنسان والإيمان، الشيخ المطهري: ٩٤.

٣-٥: دور تزكية النفس وطهارة القلب في المعرفة: الدور

الذي تلعبه هذه الأمور في نيل المعرفة يتجلى في مستويين:

أ: رفع غبار وموانع المعرفة الصحيحة من أمام رؤية الإنسان وإيجاد فضاءٍ صافٍ، وفتح مجالٍ أوسع للفكر الحرّ من كل ضغط وتخليص الفكر من كل الشوائب من الهوى والهوس والشهوة والغضب والعشق الأعم والحقّد وما شابه ذلك، مما يجعل العقل يتحرك في جو صافٍ وجلي، وبالتالي: يعيش الإنسان واعياً بذاته وغيره ومتحلياً ببطانة خاصة. يقول الرسول ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»، والنفس هنا بمعنى: النفس الأمارّة بالسوء والاحساسات الساقطة التي تجعل الإنسان أخس من الحيوان. ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «الهوى عدوّ العقل»، ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «عجب المرء أحد حساد عقله»، وقال فيما يتصل بالطمع: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع». فهذه الآفات والموانع لا يمكن إزاحتها إلا بتزكية النفس وتطهير القلب حتى يصفو الجو للعقل الخالص في حركته نحو الحقيقة، ونلمس هذه الحقيقة في القرآن الكريم: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾<sup>(١)</sup>

و﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ \* وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ب- الدور الثاني الذي تلعبه تزكية النفس وتطهير القلب هو إعداد القلب (كأداة معرفية) لتلقي المعارف العالية من منبعها الأصيل، بحيث تفاض عليه الإلهامات والحقائق والمعارف التي لا تنال بالחס والعقل: ﴿وَالَّذِينَ جَاءَدُوا فِينَا لِنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٤)</sup>. ونلمس هذا الأمر جلياً في سورة الشمس إذ بعدما ينتهي الله تعالى من القسم بمخلوقاته المتنوعة وباعتدال نفس الإنسان وخلقته، يشير إلى هذه الحقيقة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾<sup>(٥)</sup>. وللشيخ المطهري رحمته الله بيان لطيف يشرح العبارة

(١) البقرة: ٢.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) يونس: ٤٢-٤٣.

(٤) العنكبوت: ٦٩.

(٥) الشمس: ٩ - ١٠.

القرآنية: «دسّها» من مادة «دس» بمعنى: التحريف، نظير من يحرف كتاب غيره، فالقرآن يقول: يا أيها الإنسان ! أنت كتاب تكويني، فلا تكتب في هذا الكتاب كلاماً مغلوطاً، يعني: أكتب صحيحاً، أكتب كلاماً كانت معرفتك صحيحة، وكلّما تثبته في لوح نفسك من الكلام الغلط فقد خنت ونجست هذا الكتاب.

فإن عين القلب تحتاج إلى النور والضياء كي ترى المعارف الحقيقية وتشاهد حقائق الوجود كما هي عليه في الواقع تحتاج إلى النور والضياء، وتشكل التقوى وتزكية النفس في الرؤية القرآنية الأرضية لظهور هذا النور والضياء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾<sup>(١)(٢)</sup>. ثم يقيس القرآن بين من لامس قلوبهم هذا النور وبين من بقوا في الظلمات: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾؟<sup>(٣)</sup>، ﴿يَوْمَ

(١) الحديد: ٢٨.

(٢) للعلامة الطباطبائي (قدس سره) بيانات لطيفة جداً في ذيل هذه الآية المباركة.

(٣) الأنعام: ١٢٢.

تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ • يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴿١﴾ .  
وبالتالي: إذا لم يتخلل هذا النور الهداية في متن وباطن الإنسان بحيث يضئ له طريق التكامل، فيبقى الإنسان متخبطاً تائهاً في طريق الضلال سائراً بخطوات غير ثابتة واصلأً في النهاية إلى الهلاك وهذه الحقيقة نلمسها في كلام جميل للإمام الكاظم عليه السلام: «من لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفةٍ يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه»<sup>(٢)</sup>.

٥-٤: الفرق بين المعرفة العقلية والقلبية: تفرق المعرفة العقلية عن المعرفة القلبية في أنها معرفة تخضع إلى عملية التعليم والتعلم، والدرس والدراسة، فيما لا تخضع المعرفة القلبية إلى كل ذلك، بل تمثل نوع إدراك مستقيمة للحقائق بلا واسطة تصل إليه عن طريق السير والسلوك. والأولى أداؤها العقل ومن سنخ العلم الحسولي والاكتسابي، والثانية أداؤها القلب ومن سنخ العلم الشهودي، ونور يفيضه الله تعالى على قلب الإنسان، وبالتالي: من

(١) الحديد: ١٢ - ١٣.

(٢) أصول الكافي ١: ١٨.

الممكن أن يكون عالم كبير أو فيلسوف عظيم خالياً من النور، فيما تجد أويس القرني الجمال وأبا ذر الأمي متشبعين القلب به. يقول الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً عنوان البصري: «ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه»، وهذا الكلام النوراني يشير إلى ما في الآية المباركة: ﴿... يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup>، وإلى قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «... ومن زهد فيها فقصر فيها أمله أعطاه الله علماً بغير تعلم، وهدى بغير هداية و أذهب عنه العماء وجعله بصيراً...»<sup>(٢)</sup>.

ويقول السيد الطباطبائي رحمته الله في الميزان الشريف في ذيل الآية المباركة ٢٢ من سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾: «المقصود من النور هنا العلم المتولد عن الإيمان، لا العلم الحاصل من التعليم والتعلم»<sup>(٣)</sup>، وهذا ما أشار إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في قوله: «ما أخلص عبد الله أربعين صباحاً إلا أجرت ينابيع الحكمة

(١) النور: ٣٥.

(٢) بحار الانوار ٧٤: ١٦٣.

(٣) الميزان ٧: ٣٣٩.

من قلبه على لسانه»<sup>(١)</sup>، وإلى ما قاله الإمام الصادق عليه السلام: «فإن أردت العلم فاطلب في نفسك حقيقة العبودية»<sup>(٢)</sup>. والعرفاء حددوا - اقتباساً واستلهاماً من هذه التعاليم والبيانات النورانية الإلهية - طرق «السير والسلوك» وعينوا مراحل الصعود ومراقي الزلفى للوصول إلى هذه المعارف والإلهامات والإشراقات القلبية، مثل: مرحلة اليقظة، التوبة، المحاسبة، التفكر، التذكر، الاعتصام الانقطاع، الرياضة، قتل النفس، السماع ودرك اللطائف وما شابه ذلك.

٥-٥: تأثير تزكية النفس في المعرفة العلمية والفلسفية: أشرنا في الفقرة السابقة بنصوص من القرآن والسنة إلى تأثير تزكية النفس في كسب المعارف في القرآن والسنة، والآن نشير إلى تأثيرها في نيل وكسب المعارف العلمية والفلسفية، فقد يثار في البين السؤال التالي: ما هي العلاقة الموجودة بين تزكية النفس والمعرفة؟ وكيف تؤثر تزكية النفس وتطهير الباطن الإنساني بصفتهما من

(١) بحار الانوار ٧: ٢٤٢.

(٢) بحار الانوار ١: ٢٢٥.



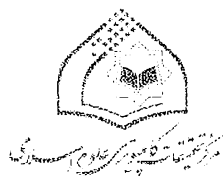
الفضائل الأخلاقية ومقولة العمل في أداة العقل وملكة الحكم في الإنسان، بحيث يفضيان بالإنسان إلى كسب ونيل سلسلة معارف علمية وفلسفية لا تنال إلا بالرياضة وصفاء القلب ؟

وللأستاذ المطهري <sup>عليه السلام</sup> بحث في هذا الموضوع يشكل إجابة على هذا التساؤل نورد هنا خلاصته: «من الحالات والقوى التي تؤثر في عقل الإنسان، يعني في عقله العملي، طغيان الهوى والهوس والمطامع والاحساسات المشيرة للعناد والتعصب وما شابه ذلك وذلك لأنَّ منطقة العقل العملي بصفته مرتبطة بعمل الإنسان هي نفس منطقة الاحساسات والشهوات. وإذا خرجت هذه الأمور عن حدِّ الاعتدال وخضع لها الإنسان ولم يسيطر عليها، أملت أوامرها في مقابل أوامر العقل، وصاحت ورفعت صوتها أمام العقل والوجدان، وشوشت نداء العقل ولوثت مصباحه، مما يفضي بالإنسان إلى عدم سماع نداء العقل المنطفئ نوره».

الحاصل: إنَّ الإنسان بصفته ينطوي على قوى معنوية متضادة ومتزاحمة تؤثر بعضها في بعض إلى درجة انطفاء آثار بعضها مثل تضاد الهوى والهوس مع القوة العقلية، يحتاج إلى ملكة التقوى والطهارة القلبية تتمثل وظيفتها في طرد ونفي هذه القوى الخبيثة

كفي بخلص العقل من شراكها وحبالها. فبناءً على هذا: أن التقوى تؤثر في تفكير الإنسان ومعرفته، بدفع الموانع المذكورة التي تعيق العقل في عمله بحيث تحرره وتنقذه من أن يقع في شباكه وحبالها. وبالتالي: يسير نحو باب السلامة:... فأبان له الطريق وسلك به السبيل فتدافعت الأبواب إلى باب السلامة، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) الأنعام: ١٦.



## **قيمة المعرفة**



## ١ - قيمة المعرفة مسألة أساسية:

ما تهدف إليه المعرفة ويمثل ضالتها الأساسية هو الجواب عن التساؤلات التالية: هل يمكن لنا الوصول إلى الحقيقة والواقع؟ وهل يطابق ما أدركناه الواقع كما هو في نفسه؟ وبعبارة أخرى: هل معارفنا تنطوي على قيمة معرفية أم لا؟ وإذا أمكن ذلك فما هو الطريق الموصل إلى الواقع؟ وما هو المعيار الذي نميز به المعرفة الواقعية عن المعرفة غير الواقعية؟ فكل هذه التساؤلات تصب في حقل «قيمة المعرفة» التي تعد من أساسيات البحوث المعرفية، إذ بها نستطيع أن نفصل بين المثالية والسفسطائية (Sophisme) وبين اليقينية (Dogmatisme) التي تبناها أفلاطون وأرسطو وأتباعه من اليونانيين والحكماء الإسلاميين وديكارت ولايب نيتس وشرجة من فلاسفة أوروبا المعاصرين ومدرسة الشكاكين (Septisisme) التي ظهرت من جديد في الغرب<sup>(١)</sup>. والداعي إلى إثارة هذه المباحث

---

(١) أصول الفلسفة ٢: ٩٤.

وطرح مثل هذه التساؤلات هو أننا نعلم بأن إدراكاتنا في الجملة ليست مطابقة للواقع، وأنها ليست كلها خطأ ومخالفة للواقع، بل بعضها حقيقي مطابق للواقع وبعضها غير حقيقي يخالف للواقع، مما يدفعنا إلى البحث عن معيار أو ضابطٍ لتشخيص الحقيقي منها عن غير الحقيقي. فعندنا مسألتان في الواقع: الأولى: ما هي المعرفة الحقيقية (تعريف المعرفة)؟، الثانية: ما هو المعيار الذي نفرز بموجبه المعرفة الكاذبة عن المعرفة الصادقة؟ وتطرح المسألة الأولى تحت عنوان «ملاك المعرفة» وتطرح المسألة الثانية تحت عنوان «معيار المعرفة».

ذكرنا في ما سلف من البحوث أن الإنسان يمكن له أن يلمس الحقيقة لمساً مستقيماً، وهذا ما يسمى في عرف الفلاسفة بالعلم الحضورى أو الشهودى، فالواقع في هذا النوع من العلم حاضر عند المدرك، وبالتالي: لا يتصور فيه الخطأ والاشتباه. ولكن باعتبار أن العلم الحضورى قليل الموارد حيث لا يتجاوز بعض المصاديق، ولا يلبي احتياجات الإنسان المعرفية، فسنركز بحثنا أكثر على العلم الحضورى وبيان أقسامه ودور الحس والعقل في هذا

المجال. وباعتبار أن الكشف عن الواقعيات مختصة بالقضايا والتصديقات، فمن الطبيعي أن ينصب اهتمامنا على التصديقات بالدرجة الأولى بصفتها تحكي عن الواقع، وعلى التصورات بالدرجة الثانية وإن كان البحث عنها مهم أيضاً بصفتها شرطاً لتحقيق التصديقات ومقدمة لها.

## ٢ - ملاك المعرفة:

ذكرنا في البحوث السالفة أن مبحث «قيمة المعرفة» يثار في صورة ما إذا كان هناك واسطة بين العالم ومتعلق العلم (المعلوم) وأن العلم غير المعلوم. وبعبارة ثانية: أن مسألة «قيمة المعرفة» تتمثل في سؤال مفاده: هل الصورة الذهنية (الواسطة) مطابقة للواقع أم لا؟ وهذا لا يتصور إلا في العلم الحسولي، ولا معنى لهذا السؤال إذا كان العالم يعلم بالوجود العيني للمعلوم. وبالتالي: لا تثار في العلم الحسوري مسألة المطابقة أو عدم المطابقة، إذ لا ثنائية هناك حتى يكون عندنا مطابق (بالكسر) ومطابق (بالفتح).

سؤال: لماذا ننعت الإدراكات الحسورية بكونها حقيقية ونقول: الإدراكات الحسورية تمام الحقيقة ومطابقة للواقع؟ الجواب:



ثمة نوع تسامح وتوسعة في مفهوم الحقيقة، فحينما نقول: العلوم الحضورية حقيقية نعني به: أنها لا تقبل الخطأ، ولا نعني: أنها مطابقة للواقع.

ومن هنا يتضح «تعريف الحقيقة» وهو: «الصورة العلمية المطابقة للواقع التي تحكيه»<sup>(١)</sup>، والمراد من الواقع هو واقعية كل شيء في ظرف نفسه، الذي هو أعم من الذهن والخارج بقطع النظر عن درك المدرك<sup>(٢)</sup>.

### ٣ - نظريات في تعريف الحقيقة:

٣-١: النظرية الذرائعية<sup>(٣)</sup>: يقول وليام جيمس أحد مؤسسي المدرسة الذرائعية: «الحقيقة هي الفكر النافع في حياة الإنسان العملية»<sup>(٤)</sup>، فالحقيقة في نظر وليام جيمس ترادف «المنفعة»، فكون

(١) الاسفار ١: ٨٩، إلهيات الشفاء، المقالة الأولى، الفصل الثامن.

(٢) الاسفار ١: ٣٦، كشف المراد: المقدمة الأولى، المسألة السابعة والثلاثون:

هذا حقاً يعني كونه نافعاً وليس كونه مطابقاً للواقع. وهذا غير قولنا: ما هو حقيقة هو نافع بصفتنا نتكلم هنا عن أثر الحقيقة لا عن معناها وتعريفها<sup>(١)</sup>. وهذه النظرية تشبه ما تراه الفلسفة التحليلية، فإنها تقول: يجب السعي نحو ما يترتب على النظرية من فائدة في مقام العمل وإلى أي حد هي فاعلة. ويمكننا تلخيص نظريتهم في هذه المقولة: «لا تبحث عن معنى القضية، أبحث عما يفيدك من استعمالها وتطبيقها»، يقول بار بور: «الفلسفة التحليلية نظرها في الغالب استخدامي وظيفي؛ بمعنى: أنها تعتقد أن النظريات مفيدة وليست مطابقة للواقع»<sup>(٢)</sup>.

٢-٣: نقد وتحقيق: يرد على هذه النظرية عدة انتقادات:

١-٢-٣: النقد الأول: هذه النظرية لا تصلح كحل للسؤال الذي طرحناه في بحث «قيمة المعرفة»، فالإشكالية الأساسية تتمثل في أننا نريد معرفة هل ما أدركناه مطابق للواقع أم لا ؟ أي: هل هذه المعرفة التي لها فائدة عملية مطابقة للواقع أم لا ؟ فالسؤال الأصلي

(١) الميتافيزيقا: ٣٥٧، فلسفتنا: ١٧٤.

(٢) العلم والدين: ١٥٣.

باقٍ على حاله، وبيانهم يمثل فراراً من الجواب الأساسي في حقل نظرية المعرفة. فلخلاف لا يكمن في لفظ «الحقيقة»، بل في خاصية الكاشفية عن الواقع والمطابقة معه. ومضافاً إلى ذلك: إن هذا التعريف تعريف باللازم الأخص، وهو كونها مفيدة، فالتعريف ليس جامعاً، كما لو عرفنا الإنسان بأنه «ضاحك عالم» فإنه ليس تعريفاً لحقيقة الإنسان بل تعريف بلازمه الأخص.

٣-٢-٢: النقد الثاني: يلف كلمتي «مفيد» و«نافع» الإبهام والغموض؛ إذ تتجليا في المحاء مختلفة من المصاديق، فما المقصود منهما، فهل المقصود المنفعة الفردية أو المنفعة الجماعية؟ وإذا كان المقصود المنفعة الجماعية فهل تشمل تمام النوع الإنساني أو فقط جماعة خاصة؟ إذ المنافع والمصالح لكل فرد وجماعة دائماً في حالة تغير وتبدل. وبالتالي: تكون الحقيقة متغيرة ومتبدلة، فما هو مفيد ونافع لفرد فهو حقيقة، وما هو غير مفيد ونافع لفرد آخر فهو خطأ، وفي النتيجة نسقط في المهرج والمرج المعرفي حيث تفسر الحقيقة وفق المصالح والمنافع الشخصية ولا يلتفت إلى مصالح ومنافع الآخرين. وإذا كان المقصود منافع ومصالح لنوع الإنسان بصفة عامة، فيبقى

الإشكال قائماً على اعتبار أن المصالح والمنافع تتغير مع تغيّر الزمان فما هو عند جيل مصلحة هو عند جيل آخر مفسدة، كاستفادة من النفط مثلاً فإنّها مصلحة للجيل الحاضر وليست مصلحة للجيل القادم، فما هو الملاك الصحيح لتشخيص المصلحة والمنفعة؟ هل هو الجيل الحاضر أو الجيل القادم؟ وعلى هذا: لا يمكن التيقن من أية حقيقة، ولا يمكن لوليام جيمس إثبات نظرياته ولا يمكن له أن يضمن لها البقاء.

٣-٢-٣: النقد الثالث: تميز هذه النظرية أن يصدّق الإنسان بشيء ينطوي على فائدة عملية ولو خالف الواقع، في حين أن ترتّب منفعة عملية على شيء من الأشياء لا يكفي في التصديق المعرفي به؛ إذ المعرفة ليست نشاطاً خارجياً، بحيث إذا علم الإنسان بفائدتها العملية يتحرك لمحوها وإلاّ لا يتحرك، بل أن التصديق بمفردة معرفية يحتاج إلى مطابقتها للواقع.

والطريف أن أصحاب هذه النظرية قد وقعوا في نفس الفخ الذي أرادوا التخلص منه، وهو فخ الشكّك والمثالية؛ إذ أنهم أعطوا للحقيقة معنىً عملياً وعروها عن حيثيتها الأساسية

(الكاشفية)، وأصبغوا عليها فقط اسم الحقيقة<sup>(١)</sup>، في حين أن النزاع لا ينصب على لفظ الحقيقة بل ينصب على نفس خاصية الكاشفية عن الواقع ومطابقتها معه.

٣-٢-٤: النقد الرابع: يقول المفكر الفرنسي بول فولكيه في كتابه «الفلسفة العامة»: يستلزم من إثبات نظرية أصالة العمل كجميع نظريات الشكاك نفيها؛ مما يعني أنها تنطوي على تناقض منطقي، لأن القول «أن الحقيقة هي الفائدة» يستلزم القول بأن ثمة شيء يمثل الحقيقة مطلقاً (أي: الحق مفيد). وهذا يشبه المقولة التي فحواها: «لا يجب التصديق بشيء مطلقاً» إذ أنها تمثل نوع تصديق وحكم، فنظرية أصالة العمل التي تنفي أي حقيقة غير حقيقة العمل نفسها قضية تمثل حقيقة كلية ونظرية، فإذا كانت المعرفة تساوق الفائدة العملية فهذه القضية نفسها باطلة.

٣-٣: نظرية آكوست كنت<sup>(٢)</sup>: تتمثل هذه النظرية في أن الحقيقة ما اتفق عليه الناس في عصر ما. ويقول فلسين شاله في كتابه

(١) الميتافيزيقا: ٦٠ و٣٥٩، فلسفتنا: ١٧٥ - ١٧٦، أصول الفلسفة ١: ٩٨.

(٢) Auguste Conte.

«الفلسفة العلمية» في فصل «قيمة وحدود العلم»: الوصف البارز للحقيقة هو وفاق جميع الأفكار في ذهن الفرد وتوافق جميع أذهان أفراد المجتمع الإنساني الحاصلة في زمان واحد والمحقة للوحدة المعنوية. وهذه النظرية تشبه نظرية أهل السنة في الإجماع القائلة بأنه يكفي اتفاق فقهاء الإسلام في زمان ما على حلية شيء ما أو حرمة ، لاتصاف ذلك الشيء بالحرمة أو الحلية؛ وبعبارة أخرى: أن نفس هذا الاتفاق يمثل الحقيقة، وإذا اتفق علماء آخرون على رأي آخر يمثل هو كذلك تمام الحقيقة<sup>(١)</sup>.

٣-٤: نقد وتحقيق:

٣-٤-١: النقد الأول: يرد على هذه النظرية نفس الإيراد السابق أي أنها لم تشخص الداء الواقعي في المعرفة، ولم تجب عن السؤال الأساس. والإشكال على هذه النظرية هو: هل ما اتفق عليه الناس يطابق الواقع أم لا؟ فإن إشكالاتنا الأساسية على السفسطائيين تختزل في السؤال السابق أي: هل تطابق إدراكاتنا وعلومنا الواقع أم لا؟ وأنتم بهذا التعريف أفرغتم الحقيقة من

(١) ومن تبنى هذه النظرية المفكر الفرنسي F.Shaler، الميتافيزيقا: ٣٦٤، أصول

مضمونها المعرفي المتمثل في الكاشفية عن الواقع، وركزتم فقط على وفاق الناس كملاك للحقيقة، الذي يمثل صورة جديدة من الشكاكية.

وإذا كان وفاق الناس ملاكاً للحقيقة فما كان يعتقد الناس من قديم الزمان إلى سنين قليلة من «دوران الشمس حول الأرض» هو حق، وما يعتقدونه الآن من «دوران الأرض حول الشمس» هو حق كذلك، في حين أن الحقيقة لا يمكن أن تتلون بلونين متناقضين فما نعتقد أنه يكون مستقلاً عن كيانتنا فإذا طابق الواقع فهو الحقيقة وإذا خالفه فهو البطلان. والطريف: أن نفس هذه النظرية: «الحقيقة هي ما اتفق عليه الناس» لم تحض باتفاق عموم الناس فهي في ضوء هذا المعيار نظرية بعيدة عن الحقيقة<sup>(١)</sup>.

٣-٤-٢: النقد الثاني: إذا انبثقت من شخصين في زمان واحد نظريتان متباينتان في ما يتصل بمسألة واحدة، فماذا نختار؟ فإذا انتخبنا النظريتين فهو جمع بين النقيضين، وإذا رددنا النظريتين فهو ارتفاع النقيضين، وإذا انتخبنا واحدة من النظريتين فنحتاج إلى

(١) أصول الفلسفة ١: ١٩، شرح المنظومة المبسوط ٢: ٣٦٧.

معيار في ذلك وإلا يلزم الترجيح بلا مرجح، وقبول الناس لا يمكن أن يشكل المعيار المطلوب.

٣-٤-٣: النقد الثالث: يقول بل فولكيه: «كون عقيدة ما حقيقة هي علة عموميتها، وليس عموميتها هي العلة في كونها حقيقة؛ وبعبارة أخرى: الشيء يقبل لدى العموم لكونه حقيقة وليس لكونه مقبول لدى العموم هو حقيقة»<sup>(١)</sup>. وكم من عقيدة أو فكرة نالت القبول من الناس وليس لها شيء من الحقيقة.

٣-٥: نظرية النسبية<sup>(٢)</sup>: تتمثل الحقيقة لدى النسبية (Relativistes) في الإدراك المنبثق من احتكاك الجهاز الإدراكي بالعالم الخارجي، فالمعرفة الإنسانية عندهم هي نتاج القوى العصبية والشيء الخارجي؛ بمعنى: أن الحقيقة تتمثل في عكس العمل الناشئ من تأثر قوة إدراكنا بالشيء الخارجي. مثلاً: إذا رأى شخص شيئاً يحمل لوناً أصفر، وشخص آخر بصفته مبتلياً بمرض ما يرى الشيء نفسه بلون أسود، فيضحى كل إدراك حقيقة في حد ذاته، فلا معنى

(١) الميتافيزيقا: ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٢) Relativite.



للمطابقة وعدم المطابقة مع الواقع باعتبار أنه لا يوجد في البين ملاك للمطابقة، بل الملاك هو مقتضى الطبيعة الذهنية وقوى الإدراك، وهذه عين النسبية في حقل المعرفة<sup>(١)</sup>.

٦-٣: نقد وتحقيق:

٦-٣-١: النقد الأول: لم تأت هذه المدرسة بشيء جديد، فإن من أدلة بيرهون الشكاك المشهور على مدعياته اختلاف أجهزة الإنسان الإدراكية واختلاف الأفراد في كيفية الإدراك، حيث استخلص من هذا التفاوت والاختلاف بطلان وانتفاء أصل الإدراك، فيما استخلص أنصار النسبية نسبية الإدراك، وقالوا: إن الإدراكات حقيقية لكنها متفاوتة بالنسبة إلى الأفراد. ولا معنى لهذه النسبية؛ على اعتبار أن الحقيقة واحدة في ذاتها، فإن الجسم السابق إما أصفر وإما أسود أو لا ذا ولا ذاك، أما كونه يحمل اللونين فهذا غير معقول. فاللائق بكم أن تقولوا مثل الشكاكين: «لا نعلم هل أن معرفتنا حقيقة أم لا؟» بصفتكم جزميين ترفضون مذهب الشكاكين<sup>(٢)</sup>، لا أن تقولوا: «إن معرفتنا حقيقة لكنها نسبية».

(١) فلسفتنا: ١٤٢ - ١٤٣، أصول الفلسفة ١: ٩٨، ١١١، ١١٤، مسألة المعرفة: ١٨١.

(٢) أصول الفلسفة ١: ١١٢، مسألة المعرفة: ٢٠١ - ٢٠٢.

مضافاً إلى ذلك: أنكم مثل الشكاكين أفرغتم الحقيقة من خاصيتها الأساسية وهي الكاشفية عن الواقع، وطرحتم ملاكاً آخر للحقيقة أقرب إلى المثالية، مع العلم أن دعوانا مع الشكاك والمثاليين - كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق - تختصر في سؤال أساس هو هل أن إدراكاتنا كاشفة عن الواقع أم لا ؟ وبأي مقدار تكشف عن الواقع أو لا تكشف ؟ والحق أن الحقيقة موجودة قبل (قبلية رتبية) جهاز الإدراك أدركها أو لم يدركها.

٣-٦-٢: النقد الثاني: تنطوي نظريتكم (كل الحقائق نسبية) على تناقض منطقي؛ على اعتبار أن الحكم المستفاد منها يشملها كذلك، فهي إما حقيقة نسبية فلا تنهض حجة على الغير، وإذا سلمنا أنه حجة فهو مطلق في حين كونه نسبياً، الأمر الذي يخالف أصل النظرية، وإما أن هذه النظرية تمثل حقيقة مطلقة فبالتالي قد اعترفتم بمعرفة مطلقة ويكفي هذا في نقض نظريتكم.

٣-٦-٣: النقد الثالث: إن أصل النظرية يبتني على فرضية قبلية تتمثل في أن حقيقة الإدراك مادية؛ فإنهم يعتقدون أن المعرفة نتاج مادي ينشأ من تأثير جهاز الإدراك بالمحيط الخارجي، وقد أبطلنا هذا الزعم في بحث «تجرد المعرفة» بأدلة متعددة.

## ٤ - معيار المعرفة:

نتناول في هذه الفقرة الإجابة عن سؤال مفاده: ما هو مقياس أو معيار تشخيص الحقيقة عن الخطأ؟ طرحت عدة نظريات للإجابة عن السؤال نعرض لها فيما يلي:

٤-١: نظرية ديكرت:

تتمثل نظرية الفيلسوف الفرنسي الكبير في أن معيار المعرفة هو الأوضحية، والقضايا الحقيقية هي التي تستنتج من البديهيات بشكل صريح<sup>(١)</sup>، وهذه البديهيات مغروسة في العقل الإنساني في أول نشأته جعلها الله تعالى في فطرة الإنسان<sup>(٢)</sup>. والسبب في اتكاء

---

(١) الفلسفة والفيزياء: ٦٤.

(٢) يقسم ديكرت تصورات الإنسان إلى ثلاثة أقسام: أ- الصور الذهنية التي يتلقاها الإنسان من العالم الخارجي، ويسمياها: الصور العارضة، من قبيل: صورة الحرارة أو الحلاوة أو الاحمرار...ب- الصور التي تصنعها قوة الخيال في الذهن بمساعدة الصور العارضة، ويسمياها: الصور المجعولة، نظير: الفرس ذو الأجنحة وما شابه ذلك، ج- الصور الفطرية التي يدركها العقل بالبداة، من قبيل: الكلية، والمفاهيم الرياضية مثل الخط النقطة وما شابه ذلك، والصور

ديكارت على البديهيات الفطرية، هو أنه لو أخطأت يلزم أن يكون الله تعالى خادعاً للإنسان<sup>(١)</sup>: «إذا كان الأمر البديهي يقبل الخطأ فيعني هذا أن الله تعالى يخدعنا، وبما أن هذا لا يليق بكماله تعالى فيحق لنا أن نعتمد على البديهيات ووضوحها وتمايزها»<sup>(٢)</sup>. ويقول أيضاً: «... ما أصلناه كقاعدة وهو: «كل ما ندركه بوضوح هو حقيقي»، لا يوصف باليقين إلا لأن الله تعالى موجود في غاية الكمال، وما لدينا هو منه تعالى... وأما إذا لم نعلم أن ما هو متحقق في وجودنا من حقيقة أو واقعية ناشئ من وجود كامل ولامتناهي فلا نظمئن إلى أن تصوراتنا مهما كانت واضحة تمثل كمال الحقيقة بأي دليل كان»<sup>(٣)</sup>. ويرى أيضاً: «إن إرادة الله تعالى هي التي حققت الحقيقة، ولو تعلققت مشية الله تعالى بالأمر بصورة أخرى لكان

⇨

الفطرية هي الوحيدة التي تتسم باليقينية والتي لها قيمة معرفية. راجع التأملات الفرع الثالث، الفلسفة الكلية لبل فولكيه: ٢٠٢.

(١) تأملات، القسم الخامس.

(٢) الميافيزيقا: ٢٠٤.

(٣) مقالة في المنهج لديكارت: ٢٥١ - ٢٥٢.

ذهنتنا وباقي الأشياء تابعة لأصول ومبادئ أخرى، وما هو بديهي في نظرنا يضحى محالاً وغير معقول»<sup>(١)</sup>.

٢-٤: نقد وتحقيق:

٢-٤-١: النقد الأول: تنطوي نظرية ديكارت على الدور الصريح؛ إذ أنه جعل البداهة هي ملاك الحقيقة وارتكز في إثبات ذلك على الله تعالى بصفته كمالاً مطلقاً، والكمال المطلق لا يخدع مخلوقاته<sup>(٢)</sup>، وارتكز في استدلاله على وجود الله تعالى وكماله على البديهيات<sup>(٣)</sup>.

٢-٤-٢: النقد الثاني: نظريته القائلة أن كل إنسان يولد وفي فطرته مجموعة مفاهيم بديهية فعلية، باطلة بالوجدان؛ لأنه لم نر طفلاً من الأطفال ولد وهو يحوي على مجموعة مفاهيم فطرية، بل إن الإنسان يكتسب مع مرور الزمان المفاهيم وفقاً لآليات خاصة<sup>(٤)</sup>.

(١) الميتافيزيقا: ٢٠٤.

(٢) مقالة في النهج لديكارت.

(٣) الميتافيزيقا: ٢٠٤.

(٤) نفس المصدر: ٢٠٦.

٤-٢-٣: النقد الثالث: إن مقولة ديكارت: «إن إرادة الله

تعالى هي التي حققت الحقيقة، ولو تعلقت مشية الله تعالى بالأمور بصورة أخرى لكان ذهننا وباقي الأشياء تابعة لأصول ومبادئ أخرى، وما هو بديهي في نظرنا يضحى محالاً وغير معقول»<sup>(١)</sup> أولاً: تفضي بنا هذه المقولة إلى نسبية المعرفة، الأمر الذي ينافي نظرية نفس ديكارت في يقينية المعرفة؛ إذ الحقيقة والإدراك يتبعان ويتعلقان بإرادة الله تعالى. وثانياً: إذا كان ما يقوله ديكارت من أن معرفتنا تتبع نوع الخلقة التي خلقنا عليها الله تعالى فإذا تغيرت فتتغير نوعية إدراكاتنا، كما يذكر ذلك في رسالته إلى مرسن: «الحقائق الرياضية التي تعدونها أزلية وأبدية من جعل الله تعالى، وهي خاضعة مثل جميع المخلوقات لله تعالى، فإذا تغيرت إرادة الله تعالى فتتغير هي أيضاً معها»<sup>(٢)</sup>، فلا يبقى معنى لقيمة المعرفة، باعتبار أننا نسعى في بحث قيمة المعرفة إلى معرفة هل ما علمناه يطابق الواقع أم لا ؟

(١) رسالة ديكارت إلى مرسن في ١٥ أبريل ١٦٣٠م من الميثافيزيقا لبول فولكيه:

وهذا لا ارتباط له بنوع الخلقة التي خلقنا عليها. وعلى هذا: إن الله تعالى أفاض علينا فقط العقل وقدرة الإدراك، ولم يفض علينا لون الإدراك بل حصلنا على هذا اللون من تعاطينا مع الواقع وإدراكنا له، وما ندركه بما أفاضه علينا يدركه مخلوق آخر شاركنا في نوع الخلقة أو لم يشاركنا (الجن أو الملائكة). فما طرحه الفيلسوف ديكارت كمعيار للمعرفة لا يفيدنا ولا يجيبنا عن السؤال الذي طرحناه في باب «قيمة المعرفة»<sup>(١)</sup>.

٤-٢-٤: النقد الرابع: نفس مفهوم الوضوح والبداهة الديكارتيين اللذين طرحهما كملاك للحقيقة لا يخلوان من إبهام وغموض، كما تفتن لذلك ديكارت نفسه: «لكن يبقى في البين إشكال، وهو: ما هو الشيء الذي يجعلنا نعلم ما هو واضح»<sup>(٢)</sup>.  
٤-٣: نظرية كانت:

٤-٣-١: تقسيمات العلوم: يقسم الفيلسوف كانت العلوم العقلية إلى ثلاثة أقسام: أ- العلوم الرياضية، ب- العلوم الطبيعية

(١) الميتافيزيقا: ٢٠٤ - ٢٠٥، تعليم الفلسفة ١: ٢٢٠.

(٢) مقالة في المهج: ٢٤٦ - ٢٤٧.

ج- الفلسفية الأولى (المتافيزيقا)، وله نظريات في قيمة هذه العلوم الثلاثة. ويقسم الأحكام العقلية بدواً إلى طائفتين: ١- الأحكام التحليلية، ٢- الأحكام التركيبية، وتمثل الأحكام التحليلية في أن المحمول مستخرج ومستل من تحليل الموضوع نفسه، فمثلاً: مفهوم «له زوايا ثلاث» مستخرجة من مفهوم المثلث نفسه، أو أن الجسم له أبعاد ثلاثة مستخرجة من مفهوم الجسم نفسه. وبالتالي: إن القضايا التحليلية لا نتحفنا بمعرفة جديدة بل تزيدنا توضيحاً وشرحاً لموضوعها، وأما في القضايا التركيبية فإن المحمول لا يستخرج من تحليل الموضوع نفسه، بل أنه أمر زائد عن الموضوع ويزيدنا معرفة حين عروضة على الموضوع، مثل: الجسم له وزن، فإن مفهوم الوزن لا نحصل عليه من تحليل مفهوم الجسم بل يمثل معرفة زائدة على معرفة الجسم<sup>(١)</sup>. ثم يقسم القضية التركيبية إلى قسمين آخرين: ١- القضايا التركيبية القبلية: وهي قضايا لا نحصل عليها من خلال التجربة، مثل: الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين، ٢-

---

(١) في الحمل الأولي إما يشكل نفس الموضوع وإما تفسيراً له، مثل، علي، علي، أو الانسان حيوان ناطق، وفي الحمل الشائع نحصل على معلوم جديد من قبيل الانسان متكامل، الاسفار ١: ٢٩١ - ٢٩٢.



القضايا التركيبية البعدية: وهي قضايا لمحصل عليها ببركة التجربة مثل: الهواء له وزن<sup>(١)</sup>.

٤-٣-٢: النظرية الرياضية لدى كانت: يرى الفيلسوف كانت أن العلوم الرياضية يقينية مطلقاً، والسّر في ذلك أن موضوع هذا العلم (الزمان والمكان) مخلوق للذهن، نابع من فطرة الإنسان، ولا علاقة له مع العالم الخارجي (أي: ليس حقيقة تجريبية). والأحكام التي تعرض موضوع الرياضيات أحكام تركيبية قبلية وما قبل التجربة، لا يعترها الخطأ والاشتباه<sup>(٢)</sup>. ولو كانت موضوعات الرياضيات ليست ناشئة من فطرة الإنسان، بل أدركها العقل من خلال التجربة لكانت لها مثل موضوعات العلوم الطبيعية مرحلتان: الأولى: وجود الشيء في نفسه (الخارج)، والثانية: وجود الشيء في إدراكنا (الذهن)، وحينئذ يثور الشك التالي: من أين نعلم أن وجود الشيء في ذاته عين وجود الشيء في إدراكنا؟ لعل ما هو موجود في إدراكنا غير ما هو في ذاته؟ وباعتبار أن موضوعات

(١) التمهيدات: ٩٧ - ٩٨.

(٢) نفس المصدر: ٩٨.

الرياضيات وجودات ذهنية (الشيء في إدراكنا) وليست أشياء في ذاتها (أمور خارجية)، فهي حقائق ما قبل التجربة لا يعترها الشك والترديد<sup>(١)</sup>.

#### ٤-٣-٣: نظرية كانت في العلوم الطبيعية:

يرى الفيلسوف كانت أنَّ الذهن البشري لا يستطيع إدراك ذوات الأشياء، بل يمكنه فقط إدراك ظواهر الأشياء، وبعبارة أخرى: الذهن يستطيع إدراك الشيء في الذهن<sup>(٢)</sup> ويعجز عن إدراك الشيء في ذاته<sup>(٣)</sup>؛ ذلك لأنَّ الشيء القابل للإدراك هو ظواهر الأشياء لا الأشياء نفسها. ومن هنا ندرك أنَّ كانت لا ينفي ذوات الأشياء بل يرى أنَّها غير قابلة للإدراك، ويرى أنَّ المعرفة تتركب من صورة تنتمي إلى عالم الذهن ومن مادة تنتمي إلى عالم الخارج، حيث تأخذ الحواس مواد أولية للمعرفة من الخارج، فاقدة للخصوصيات من صورة وتعيَّن وتشخص، ثم يصبها الذهن في ظرف الزمان والمكان

(١) كليات الفلسفة: ٣٣٥.

(٢) Phenomene .. Noumene.

(٣) الميتافيزيقا: ٢٢٣ - ٢٢٤.

بصفتها قالبين ذهنيين، مما يجعلها تكتسب صورة معينة تخرجها من حالة البعثرة وعدم الإنسجام<sup>(١)</sup>. ويجعل الذهن المواد الأولية تتحد مع الصورة الذهنية تحصل المعرفة البشرية، من قبيل ما ندركه من مواد أولية تخص الشمس من حرارة وضياء ولون وما شابه ذلك فإنها قبل ورودها الذهن عبارة عن أمور مبعثرة لا ربط بينها، وبعد ورودها الذهن تصب في ظرف الزمان والمكان مما يجعلها تكتسب صورة واضحة تعكس الشمس الواقعية. وبعد أن تكتسب صورتها الذهنية تُصب من جديد في قالب ذهني آخر (مرتبة الفاهمة الاستعلائية) فتحصل القوانين الكلية والعامّة<sup>(٢)</sup>. وبعبارة ثانية: لا تتحقق المعرفة في الرؤية الكانتية إلا إذا صيغت المعطيات الحسية في قوالب الفاهمة، فكما أن المادة الأولية (ظواهر الشيء في نفسه) لا تتحقق ولا تأخذ صورتها الذهنية إلا إذا صيغت في قالب الزمان والمكان، كذلك المعطيات الحسية لا تأخذ شكلها المعرفي إلا إذا صيغت في قوالب الفاهمة<sup>(٣)</sup>. والحاصل: أن الذهن البشري في

(١) جولة في الفلسفة الغربية ٢: ٢٢٣.

(٢) الميتافيزيقا: ٢٢٦.

(٣) الفيزياء والفلسفة: ١٢٢، كليات فلسفية: ٣٣٦.

الرؤية الكانتية لا يتسنى له معرفة الأشياء كما هي عليه في الواقع، بل يمكن له فقط الإحاطة بظواهر الأشياء كما يصيغها هو وفقاً لآلياته الخاصة<sup>(١)</sup>، وهذا مدلول عبارته الشهيرة: «يجب أن نجعل الخارج تابعاً للذهن في عوض أن يكون تابعاً للخارج حتى نحل مشكلات الفلسفة»<sup>(٢)</sup>. والمسألة المعرفية الخطيرة التي طرحها كانت هي تفكيكه بين «الشيء في ذاته» و «الشيء في إدراك الإنسان» إذ يتركب «الشيء في إدراك الإنسان» من مادة أولية تأتيه من الخارج وما تتحفه به القوالب الذهنية، فيما يمثل «الشيء في ذاته» الشيء الخارجي فقط، الأمر الذي يجعلنا لا ندري هل معلوماتنا بالعالم الخارجي حقيقية أم لا؟ ومطابقة للواقع أم لا؟ ويعلق باربور على نظرية كانت في كتابه «العلم والدين»: «لا يمكن لنا معرفة نفس الأمر أو الأشياء في نفسها بمعزل عن غبار التحريفات الذي يمكن أن يصيبها من جراء حوادث الذهن»<sup>(٣)</sup>.

(١) التمهيدات: ١٠، و ١٢٠، العلم والدين: ٩٢، نقد العقل الخصب: ٤١.

(٢) الميتافيزيقا: ٢١٦ - ٢١٧.

(٣) العلم والدين: ٩٢.

## ٤-٣-٤: نظرية كانت الميتافيزيقية:

يرى الفيلسوف كانت أن العقل النظري لا يمكنه درك مسائل الميتافيزيقا؛ لأنها في نظره تختلف جوهرياً عن موضوعات الرياضيات التي هي عبارة عن حقائق ذهنية تشملها الأحكام التركيبية وما قبل التجربة، وتختلف (مسائل الميتافيزيقا) عن مسائل العلوم الطبيعية التي تخضع لعملية التجربة واللمس الحسي وتشملها أحكام ما بعد التجربة<sup>(١)</sup>. وبالتالي: ما دامت مسائل الميتافيزيقا لا تندرج تحت موضوعات الرياضيات ولا تحت موضوعات الطبيعيات، فلا يمكن أن تدرج تحت المعرفة الإنسانية، وكل ما قيل أو سيقال في هذا الحقل المعرفي هو مجرد ألفاظ جوفاء ليس إلا<sup>(٢)</sup>.

## ٤-٢: نقد نظريات كانت:

٤-٢-١: لم نعثر على تعريف لحقيقيي الزمان والمكان في فلسفة كانت مع أهميتهما الفائقة عنده، حتى يمكننا التأمل فيهما والحكم عليهما، بخلاف ما نجد في الفلسفة الإسلامية إذ يعدان

(١) التمهيدات: ٩٥ - ٩٦.

(٢) التمهيدات: ٤٠، ١٧٣.

لديها من أعراض الجسم وخصوصياته، لحصل على مفهوميهما من ملاحظ الجسم وحالاته. فإذا اتصف الجسم بالحركة (الخروج من القوة إلى الفعل تدريجاً) يتجلى الزمان بصفته مقداراً للحركة، وإذا نظرنا إلى نسبة أجزاء الجسم في ما بينها لحصل على المكان<sup>(١)</sup>. فالزمان والمكان وصفان للمادة، وبدون مادة موجودة متحركة أو جزء مادة مقاس إلى جزء آخر لا يمكن انتزاع مفهومي الزمان والمكان، وبالتالي: لا يمكن جعلهما حاكمين على المادة وطرفين لها كما يتوهم ذلك الفيلسوف كانت؛ إذ خاصية الشيء لا يمكن أن تكون ظرفاً للشيء نفسه<sup>(٢)</sup>.

---

(١) البحث عن المكان والزمان في الفلسفة بحث طويل الذيل يحتاج إلى دراسة مستقلة.

(٢) لذا قال جى اج جينز صاحب: ((الفيزياء والفلسفة)): إذا كانت المعرفة القبلية ليست ناشئة من تجربة العالم الخارجي فكيف تحكي عن الخارج؟ لماذا حين نتعاطى مع الخارج نجده منسجماً مع معرفتنا القبلية؟ وإذا تمكن كانت أو ادنكتن أن يصنع العالم بكلية يمدد هذه المعرفة، فعلى أي أساس تبني آمالهما في مطابقة تكهناتهما مع العالم الخارجي؟

٤-٢-٢: قوله: إن الإدراك واقع في ظرف الزمان والمكان قول لا يساعده الدليل بل الدليل على خلافه، ذلك: لأن العلم مجرد والمجرد خارج عن دائرة الزمان والمكان، وإن كانت معدات العلم زمانية لكن العلم نفسه لا يحيط به الزمان<sup>(١)</sup>.

٤-٢-٣: قوله: إن مقولات الفاهمة (المقولات ١٢) ذهنية محضة ليس لها منشأ خارجي مطلقاً، يثير فينا التساؤلات التالية: كيف يحمل (كانت) هذه القوالب الذهنية على الأشياء الخارجية؟ وكيف يوجه ارتباط هذه المقولات بالمحسوسات الخارجية؟ وكيف يكون ما صنعه الذهن الصرف ملاكاً لمعرفة الواقع الخارجي<sup>(٢)</sup>؟

٤-٢-٤: ونظريته في أن مقولات الفاهمة (المقولات ١٢) كلها ذهنية محضة، لا يمكن مشايعته عليها لا أقل في بعضها؛ فإن مقولة العلية والمعلولية لها منشأ انتزاع خارجي، وكانت ملزم بقبول هذه الحقيقة، وإلا تذهب فلسفته بتمامها أدرج الرياح. فإنه هو نفسه يقول إن المادة الأولية للمعرفة تأتي من الخارج والذهن يتأثر بها ثم

---

(١) الاسفار ٨: ٤٣.

(٢) المذاهب الفلسفية، القسم الثاني، احمد احمدي: ٨٥ - ٨٦.

تتولد معرفة جديدة، وهل التأثير والتأثر غير العلية والمعلولية؟  
فنفس فرض الذهن علة أو مادة أولية موجودة في الخارج يشكل  
أحسن دليل على أن العلية لها منشأ انتزاع خارجي. ومضافاً إلى أن  
الدليل الذي ذكره كانت في إثبات الذوات الخارجية يتوكل على  
أصل العلية؛ وإن كنا لا ندرك الذوات الخارجية بحواسنا بل نتعاطى  
فقط مع الظواهر التي تعرضها، لكن يجب أن نصدق بوجود  
الذوات بصفاتها علة للظواهر. ومن حقنا أن نسأل كانت: كيف  
تسنى لك الاستفادة من قانون العلية لإثبات العالم الخارجي؟  
فالتريق الوحيد لإثبات العالم الخارجي هو أصل العلية، إذ نقول:  
إن صورنا الذهنية عن العالم الخارجي معلولة لعلّة ما، وإن لم تكن  
العلّة هي العالم الخارجي لم تكن الصورة موجودة أصلاً، فهي إذن  
معلولة للعالم الخارجي.

٤-٢-٥: يميّز الفيلسوف كانت بين الشيء في نفسه (الشيء  
الخارجي) وبين الشيء عندنا (في الذهن)، مما ينبئ عن عدم قوله  
بكاشفية ما في الذهن لما في الخارج، فما في الذهن تمّ صنعه وترتيب  
ماهيته على مستوى جهاز الفاهمة، ولا علاقة له بما في الخارج من  
أشياء. وبالتالي: إن كانت ليس لم يحل إشكالية «قيمة المعرفة»



فحسب، بل وقع في الوحل نفسه الذي سقط فيه الشكاك، على اعتبار أنه إذا كان الذهن الإنساني هو المقياس في المعرفة ففيما تفرق نظرية كانت عن نظرية بروتوكوراس القائلة: «إنَّ الإنسان مقياس كل الأشياء»؟ فمقولات الفاهمة والصور الذهنية بمثابة نظارة ملونة تصبغ الواقع الخارجي بلونها في ذهن الإنسان، أما الواقع الخارجي في نفسه فما هو؟ لا نعلم ذلك! ويقول صاحب «الفيزياء والفلسفة»: ((يتصور كانت أنَّ العالم الخارجي يتحفنا بمجموعة من التأثيرات مشوشة، ويمكن لذهننا أن ينظمها وينتخبها بطرق متعددة ومختلفة؛ ذلك لأنَّ أذهاننا صنعت بنحو خاص وانتخابها يكون بنحو معيَّن، ويمكن لأذهان أخرى صنعت بنحو مختلف أن تختار طرقاً أخرى))<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - نظرية جان لوك في قيمة المعرفة:

يعد جان لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤م) من كبار علماء مدرسة التجريبية، وقد رفض نظرية ديكارت القائلة أنَّ الذهن يخلق

(١) أصول الفلسفة ١: ١٢٣، فلسفتنا: ١٠٤، شرح المنظومة المبسوط ٣: ٢٧٣ - ٢٧٥

مجهزاً بمفاهيم في أوّل خلقته هي التصورات الفطرية، يقول: ليس عندنا مفاهيم فطرية بل جميع معارفنا تحصل عن طريق الحواس<sup>(١)</sup>. وأحسن من يترجم هذه النظرية عبارته التي جاءت في كتابه الشهير «تحقيق في فهم الإنسان»: لا يوجد شيء في العقل لم يمر بالحواس<sup>(٢)</sup>. فإنّه يرى أنّ ذهن الإنسان كان في البدء كاللوح الأبيض لم ينقش فيه شيء، ثم شيئاً فشيئاً نقشت فيه معلومات عن طريق الحواس والتجربة، فلحس في نظره هو منشأ الوعي - بكل أشكاله - البسيط منه والمعقد. وقسم عند تناوله لـ «قيمة المعرفة» معلومات الإنسان إلى أقسام ثلاثة، قسمان منها لا علاقة لهما بالحواس والتجربة وهما غير يقينيين يعدان من الأوهام، والقسم الآخر وهو الإدراك الحسي وهو إدراك يقيني، فالوعي الإنساني في نظر جان لاك إمّا وجداني أو شهودي لا يحتاج في إدراكه إلى واسطة، مثل: علم الإنسان بذاته والفرد ليس بزوج، والواحد نصف الاثنين، ويدرج مسائل الرياضيات والله تعالى ومسائل الأخلاق تحت هذا النوع من

(١) تحقيق في فهم الإنسان وعقله، جان لاك.

(٢) جولة في الفلسفة الغربية ٢: ١٢٩.

الوعي<sup>(١)</sup>. والقسم الثاني: المعرفة العقلية تحصل بفضل وعي قبلي من تصورات أخرى، من قبيل: إدراك أن مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين، وهذه المعلومات لا ترقى إلى مستوى الإدراكات السابقة في اليقين إلا في حالة ما إذا كانت الواسطة شهودية ووجدانية. والقسم الثالث: الإدراك الحسي الناشئ من التعاطي المستقيم مع المحسوس الخارجي، ولا يمكن الشك في حقانية هذا الإدراك، لكنه لا يرقى إلى مستوى المعرفة الشهودية والعقلية، بل يصلح للأمور اليومية فقط. وتمثل نظريته في إدراك خواص الأجسام فيما يتصل بالمعرفة الحسية في أن خواص الأجسام على قسمين<sup>(٢)</sup>: الأولى: خواص ذاتية للجسم لا تنفك عنه من قبيل الحركة والسكون والشكل والامتداد والثانية: خواص عرضية تنفك عنه من قبيل اللون والطعم والرائحة وما شابه ذلك. ويرى أن الخواص الذاتية للجسم حقيقة وواقعيات خارجية، قابلة للإدراك والفهم كما هي في ذاتها، أما الصفات العرضية المنفكة فهي غير حقيقية ولا تمثل صفات للأشياء الخارجية

---

(١) الفيزياء والفلسفة: ٦٧.

(٢) وقد بنى قبله هذا التقسيم الفيلسوف ديكارت.

بل هي عبارة عن احساسات تحصل في الذهن بسبب الخواص الذاتية، تابعة للبنية والقوى النفسانية<sup>(١)</sup>.

## ٦ - نقد نظرية جان لاك:

تبنى جان لاك نظرية ديكارت نفسها فيما يتصل بقيمة الإدراكات الحسية، فإنه يرى أن المعلومات الحسية تتحلّى بقيمة عملية وتفتقد إلى القيمة النظرية، مع أنه يتوقع منه أن يعطي الأصالة لهذه الإدراكات بصفته إماماً من أئمة التجريبية، لكنه بالعكس مجده يعطي أهمية للتعقل والشهود أكثر من الحس، ولذا يقول بول فولكويه: «حقيقة المسألة هي أن جان لاك كان من أتباع العقلانية بدون وعي منه بذلك»<sup>(٢)</sup>، ويقول في نهاية بحثه عن لاك: «لاك من أتباع العقلانية وقوله: «إن العقل ما به الامتياز الطبيعي للإنسان» يبين هذا المطلب بأحسن وجه، مضافاً إلى أن لاك توكأ في إثبات وجود الله تعالى على العقل، ويرى بداهة وجوده تعالى بقيمة

(١) الميتافيزيقا: ١٢٧.

(٢) نفس المصدر: ١٢٩.

بداية البراهين الرياضية»<sup>(١)</sup>.

وما يؤخذ على جان لاك أنه إذا كانت جميع معلومات الإنسان تحصل عن طريق الحواس، والمحسوسات تفتقد إلى اليقين العلمي، فكيف اكتشفت خواص الأجسام وقسمتها إلى حقيقية ووهمية نفسانية، في حين أنها كلها تمثل معطيات حسية<sup>(٢)</sup>؟ وبعبارة أخرى: إذا كان المعطى الحسي هو ملاك واقعية الأشياء المدركة، فلا يمكن تقسيم خواص الجسم إلى حقيقية واقعية وإلى وهمية غير حقيقية، فما دامت الخواص غير الحقيقية تمثل معطى حسيّاً فهي واقعية يقينية. ومضافاً إلى ذلك كيف تقسم المعلومات إلى عقلية ووجدانية، وتعتقد بقيمتها المعرفية في حين أنهما لا يرتكزان على المعطى الحسي؟

وهذا التناقض الملحوظ والصريح في النظرية المعرفية لجان لاك يجعلنا نعتقد أنه من أتباع مدرسة الشكاك، إذ يدعي من جهة أن أساس المعرفة اليقينية هو الحس والتجربة، ومن جهة أخرى

(١) نفس المصدر: ١٣٠.

(٢) أصول الفلسفة ١: ١٢٠، فلسفتنا: ١٠٩.

يعطي للمعلومات العقلية والشهودية قيمة معرفة تفوق القيمة المعرفية للتجربة والحس، ويرى أن المعرفة الحسية مجرد معرفة عملية لا ترقى إلى المعرفة اليقينية، وهذا التناقض الذي وقع فيه جان لاك هو الفخ نفسه الذي أراد الفرار منه.

#### ٧- نظرية الفلاسفة الإسلاميين،

٦-١: مقدمة: بيّنا في المقالات السابقة أن العلم الحضوري بصفته يمثل وجود المعلوم (الواقعية) لدى العالم، ولا يحتاج في الوعي به إلى واسطة تقع بين العالم والمعلوم، وأنّ العالم يمثل عين المعلوم والعلم، فلا يمكن تصور الخطأ فيه وعدم مطابقة العلم مع المعلوم، ولذا لا يطرح في هذا الحقل المعرفي بحث «قيمة المعرفة». فالحقل المناسب لهذا البحث هو العلم الحسولي بصفته علماً بواسطة، أي: أن العالم يحيط بالأشياء الواقعية بواسطة (الصورة الذهنية)، فإذا طابقت هذه الواسطة الواقع ونفس الأمر فلهذه الإحاطة قيمة معرفية وإن لم تطابق فلا قيمة معرفية لها. ففي حقل العلم الحسولي يجد السؤال التالي موقعه: ما هو مدى مطابقة الواسطة (الصورة العلمية) للواقع ونفس الأمر؟

فواقع الإشكالية يتمثل في أنه مادام أن الواقع ليس حاضراً لدينا بوجوده بل حاضراً بواسطة (الصورة الذهنية) المتواجدة في وعي العالم، لمحتاج أن نعرف: هل ما وعيناه (الواسطة) هو كذلك في الواقع ونفس الأمر أم لا؟ ولا يمكن حل هذه الإشكالية إلا إذا أرجعنا هذا الوعي (الإحاطة الحصولية) إلى إحاطة حضورية<sup>(١)</sup> بمعنى: أننا نصل إلى مرتبة من الوعي تجعلنا نحيط بالواسطة (الصورة الذهنية) ومتعلق هذه الواسطة إحاطة حضورية، وأنذاك لا يبقى مجال للسؤال السابق.

٧-٢: القضايا الوجدانية: لدينا في حقل العلم الحصولي قضايا تسمى «الوجدانيات» تشكل مفتاحاً لحل الإشكالية المعرفية السابقة؛ إذ يمثل متعلق الإدراك الحصولي حقيقة حاضرة عندنا ندركها بدون واسطة، ولدينا من جهة أخرى الواسطة (الصورة الذهنية) التي تحكي عن متعلقها حاضرة عندنا. مثلاً: أن القضية «أنا شاك» أو القضية «أنا خائف» تعدان من القضايا الوجدانية

---

(١) لا يكفي العلم الحضورى في ذلك؛ فلا بد من الاستعانة بالشهود العقلي في حل هذه الإشكالية (المترجم).

تحكيان حالتين نفسييتين (حالة الشك وحالة الخوف) تمثلان متعلق إدراكنا نعي بهما وعياً حضوراً، ونعي بالواسطة (الصورة الذهنية) وعياً حضورياً كذلك. فأمثال هذه القضايا لا يمكن أن يعتريها الشك والتردد، لأنَّ الشك والتردد يتصوران في حالة ما إذا كانت الصورة الذهنية حاضرة عندنا ومتعلقها غير حاضر عندنا. ومن هنا يأتي السؤال: من أين ندري أن الصورة الذهنية الحاكية عن الواقع تطابق الواقع وتنسجم معه؟ ولكن إذا كانا حاضرين لدينا لا معنى للسؤال السابق، بل لا مجال للسؤال عن المطابقة وعدم المطابقة.

٧-٣: القضايا المنطقية: ومن القضايا التي لا يمكن الشك في كونها يقينية القضايا المنطقية، وهي عبارة عن صورتين ذهنييتين حاضرتين لدى المدرك؛ بمعنى: أنا لدينا صورة ذهنية أو مفهوم في مرتبة الذهن، والذهن بصفته مشرفاً على هذه المرتبة ينتزع مفهوماً آخر يحمله على المفهوم الأول. مثلاً: لدينا مفهوم الإنسان في مرتبة الذهن، وبعد التأمل فيه - وهو في هذه المرتبة - نجد ينطبق على كثيرين، فننتزع مفهوم الكلية الذي يقع في مرتبة متأخرة (ثانية) بالنسبة لمفهوم الإنسان، ونحمله عليه: «الإنسان كلي». فالقضية «الإنسان كلي» علم حصولي تحكي الواقع بواسطة، لكن لا يمكن



أن نتردد في كونها حقيقة أبداً باعتبار أن المرتبتين الأولى (الإنسان) والثانية (الكلية) حاضرتان معاً لدينا، وبإمكاننا القيام بمقايضة بينهما وتشخيص صدق القضية (الإنسان كلي): أن مفهوم الإنسان يصدق على كثيرين.

بيناً إلى هنا القيمة المعرفية لنوعين من القضايا (الوجدانيات والقضايا المنطقية)، وهذا لا يكفي لبناء صرح العلم الحصولي بكافة حقوله، ولبيان القيمة المعرفية لجميع معلوماتنا الحصولية. يتحتم علينا اتخاذ طريق ثانٍ لضمان حقانية هذا النوع من العلم والطريق يتمثل في محاولة إثبات يقينية «البديهيات الأولية»، فإذا أفلحنا في هذه المهام فقد أثبتنا القيمة المعرفية لهذا النوع من القضايا وكل القضايا النظرية بصفاتها تتوكل عليها في قيمتها المعرفية، وبالتالي: أننا استطعنا إثبات القيمة المعرفية لجميع المعلومات الحصولية.

٧-٤: القضايا البديهية الأولية: يطرح في المقام بحث يتصل بالمفاهيم التصورية وبحث ثاني يتصل بكيفية ارتباط هذه المفاهيم التصورية فيما بينها، أي: كيفية الحكم باتحاد الموضوع مع المحمول.

وأما فيما يتصل بالجهة الأولى فإن المفاهيم التصورية المستخدمة في القضايا البديهية من نوع المعقولات الثانوية الفلسفية المتزعة مباشرة من العلوم الحضورية أو تنتهي إلى العلوم الحضورية. فمثلاً: ندرك نفسنا إدراكاً حضورياً وندرك إرادتنا إدراكاً حضورياً أيضاً، ثم نقوم بعملية قياسية بين الواقعتين باحثين عن العلاقة الواقعية بينهما، فنجد أن الإرادة متوقفة الوجود على النفس، والنفس مستقلة في وجودها عن الإرادة، ثم نتزع من هذه العلاقة مفهوم «الاحتياج» أو «المعلولية» ومفهوم «الاستقلال» أو «العلية». وتندرج مفاهيم القضايا البديهية الأولية تحت هذا النوع من المفاهيم حيث تحكي عن مصاديق أو مناشيء انتزاعها حاضرة عندنا بوجوداتها.

وأما فيما يتصل بالجهة الثانية فإن جميع محمولات القضايا البديهية الأولية نحصل عليها من خلال تحليلنا لموضوعاتها؛ وبعبارة ثانية: أن هذه القضايا عبارة عن قضايا تحليلية ندرك كيفية اتحاد محمولها مع موضوعها من خلال تجربة ذهنية داخلية. من ذلك على سبيل المثال: إذا قلنا: «كل معلول يحتاج إلى علة» فنعي مفهوم العلة

من خلال تحليل مفهوم المعلول بصفته يمثل الاحتياج إلى الغير (العلة)، فمفهوم «الاحتياج إلى العلة» مشرب في مفهوم المعلول، أو القضية: «الكل أعظم من الجزء» فإننا نحصل على مفهوم «أعظم من الجزء» من تحليلنا لمفهوم «الكل». والحاصل: أن القضايا البديهية الأولية بصفاتها تنتهي إلى العلم الحضورى لا تقبل الخطأ بمعنى: أن الضامن لصحتها وتمثيلها للواقع ونفس الأمر هو رجوعها عند التحليل إلى العلم الحضورى<sup>(١)</sup>.

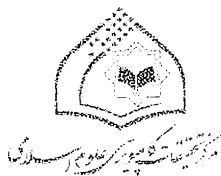
٧-٥: نكتة: من البحوث السابقة يتضح أن السرّ في كون القضايا بديهية أولية ليس في كونها لا تقبل الخطأ، بل السرّ يكمن في كونها تتوكأ في نهاية المطاف على العلم الحضورى؛ لأنها في النهاية من أقسام العلم الحضورى وتمثل صورة الواقع وليس عين الواقع، وبالتالي: إذا لم ترجع في نهاية المطاف إلى الواقع نفسه (العلم الحضورى) فلا ضمان لصحتها ومطابقتها للواقع. ومن هنا يتبين لنا أن ما قاله السيد الصدر في كتابه النفيس «فلسفتنا»: «من أن سلسلة القضايا تنتهي عند البديهيات ثم تتوقف» كلام

(١) تعليم الفلسفة ١: الدرس ١٧، ١٩.

ناقص وإن كان صحيحاً في نفسه؛ إذ حتى لو توقفت عند  
البديهيات يبقى السؤال مطروحاً بصفتها علماً حصولياً: ما هو  
دليل صحة هذه التصورات؟

٦-٧: القضايا النظرية: قد عرفنا أن القضايا البديهية قضايا  
يقينية، وسرّ هذا اليقين مع كونها علوماً حصولية انتهائها عند  
التحليل إلى العلم الحضورى، أما القضايا النظرية فتحتاج إلى معيار  
منطقي لإثبات صحتها، ويتمثل هذا المعيار في أنها إذا رجعت في  
عملية الاستنتاج المنطقي إلى البديهيات الأولية فهي يقينية وإلا فلا  
قيمة معرفية لها<sup>(١)</sup>.

(١) الاسفار ٣: ٤٤٣، الفصل: ٢٥، نهاية الحكمة: ٢٥٢.



## الفهرس:

المقدمة.....٧

### بحوث تمهيدية

١. ضرورة المعرفة.....١١
٢. المعرفة وضرورتها في الرؤية القرآنية.....١٧
٣. تاريخ نظرية المعرفة.....٢٢

### تعريف المعرفة

١. المعرفة: هي انعكاس الخارج في الذهن.....٢٨
٢. نقد ونقض.....٢٨
٣. تنبيه: المعرفة فرع الوحدة بين العاقل والمعقول.....٣٤
٤. تعريف صدر المتألهين والعلامة الطباطبائي قدس سرهما.....٣٦

٥. نقد وتحقيق..... ٣٧
٦. تعريف العلم عند المشهور..... ٣٨
٧. تعريف الشيخ مصباح (حفظه الله تعالى)..... ٣٩

### إمكان المعرفة

١. نشأة السفسطائية..... ٤٤
٢. إنكار إمكان المعرفة..... ٤٧
٣. مدرسة الشكاكين..... ٤٩
١. خطأ الحواس والعقل..... ٥٠
٢. نقد..... ٥١
٣. معرفة الجزء بمعرفة الكل..... ٥٣
٤. نقد ونقض..... ٥٤
٥. اختلاف المفكرين..... ٥٥
٦. نقد ونقض..... ٥٦
٧. الدليل العقلي..... ٥٨
٨. نقد ونقض..... ٥٨
٩. خلاصة..... ٦٠

### أساسيات المعرفة

١. أقسام المعرفة..... ٦٦
٢. التدليل على العلم الحضوري..... ٧٠
٣. نقد ونقض..... ٧٢
٤. العلم الحضوري وعصمته عن الخطأ..... ٧٤
٥. النفس وبداية المعرفة..... ٧٦
٦. ملاك العلم الحضوري..... ٧٧
٧. المعيار المعرفي الديكارتي..... ٧٨
٨. نقد ونقض..... ٧٩

### العلم الحسولي

١. التصور والتصديق..... ٨٣
٢. أجزاء القضية..... ٨٥
٣. أقسام التصور..... ٨٨
٤. نظريات في التصورات الكلية..... ٩٤
٥. تقسيم العلم الحسولي إلى كلي وجزئي..... ١٠٢



## المفاهيم الكلية

### المعقولات الأولية والثانوية

١. أقسام المعقولات.....١٠٩
٢. حيثية الإشتراك بين المفهومين.....١١٤
٣. الفرق بين المعقولات.....١١٥
٤. مقولات كانت.....١١٦
٥. الفروق بين مقولات كانت ومقولات أرسطو.....١١٧
٦. إشكالية المعرفة والمعقولات الثانوية.....١١٨
٧. تعاريف ونقدها.....١٢٥
٨. النقض على هذا التحليل.....١٢٧
٩. المفاهيم الإعتبارية (الأخلاقية والحقوقية).....١٢٨

### امالة المس

- نظرية الوضعية المنطقية.....١٣٥
١. المدرسة الوضعية.....١٣٧
٢. نقد المدرسة الوضعية.....١٣٩
٣. الوضعية المنطقية وفلسفة تحليل اللغة.....١٤٢

الفهرس.....	٢٤١
-------------	-----

---

٤. نظريات الوضعية المنطقية.....	١٤٣
٥. نقد الوضعية المنطقية.....	١٥٢

### **أصالة العقل**

١. باب التصورات والمفاهيم.....	١٥٩
٢. باب التصديقات.....	١٦١
٣. نقد التجريبية.....	١٦٣

### **أدوات المعرفة**

١. النظرية الغربية والإسلامية.....	١٦٩
٢. الحواس والمعرفة.....	١٧٠
٣. محدودية المعرفة الحسية.....	١٧١
٤. القوة العاقلة.....	١٧٣

### **قيمة المعرفة**

١. قيمة المعرفة مسألة أساسية.....	١٩٧
٢. ملاك المعرفة.....	١٩٩

٢٤٢.....	نظرية المعرفة
----------	---------------

---

٢٠٠.....	٣. نظريات في تعريف الحقيقة
----------	----------------------------

٢١٠.....	٤. معيار المعرفة
----------	------------------

٢٢٤.....	٥. نظرية جان لاک في قيمة المعرفة
----------	----------------------------------

٢٢٧.....	٦. نقد نظرية جان لاک
----------	----------------------

٢٢٩.....	٧. نظرية الفلاسفة الإسلاميين
----------	------------------------------

٣٣٧.....	الفهرس
----------	--------